

سرواية

عینان بک

بلا وسع

جهان حازم ع.ف

عینان بکت بلا دموع

روایۃ

عینان بکت بلا دموع

جهان حازم ع ف

جهان حازم ع ف © 2020 Copyright

All rights reserved.

المقدمة

رواية اجتماعية من تأليف جهان حازم ع ف، إنها حقيقية ليست خيالا، شخصياتها من الواقع الذي نعيشه مع تغيير في الأسماء و بعض الأحداث تفاديا لذكر التفاصيل الدقيقة للحياة الشخصية للأفراد.

الرواية تحمل أيضا معاني جوهريّة، تحكي عن معاناة امرأة عاشت منذ صغرها شقاءً لا نهاية له، ولكن رغم قسوة ظروفها إلا أنها كانت شجاعة، مؤمنة، قوية لا تستسلم لليأس.

الحياة تستمر مهما طال الشقاء وصعبت الطريق هكذا يجب أن نفكر هكذا يجب أن نحيا هكذا يجب أن نستمر.

من نبع إيماننا بالله نستلهم القوة على تحمل متاعب الحياة فلا يجب أن نتعب أو نكل هكذا كانت تفكر حنان وهكذا كان يقينها بالفرج الذي سوف يأتيها من الله ولا أحد سواه قادر على منحها السعادة التي كانت تسعى إليها.

جلست وما كانت لتجلس ولكن ذكرياتها تستحق ذلك الجلوس أخذت تسرد أحداث ماضيها كفيلم سينمائي يسير ببطء.

رفع الستار وبدأت حكايتها مع أول لحظة لقاء مع الحياة، اللحظة التي فتحت عينيها على هذا العالم الكبير المليء بالأشواق، لحظتها لم تعرف شيئاً، لأنها كانت مجرد طفلة رضيعة ولدت لعائلة كانت تنتظر مولودها بشغف كبير.

ولدت بعد أن ماتت قبلها أخت لها، كانت كاللؤلؤة النادرة التي تشغف العين برؤيتها، سميت حنان، هذا الاسم الذي يأخذ معناه من تلك الكلمة نفسها.

لقد ولدت هناك في إحدى القرى الجزائرية، سنوات قليلة قبل ثورة التحرير، في بيت مبني من الطوب، بسيط كبساطة حياتهم، لم تكن العائلة ترى في هذه الطفلة الصغيرة سوى أنها كباقي الأطفال تلعب، تضحك، وتارة تبكي.

ولكن كانوا يجهلون تماماً أنها كانت مختلفة، ذكية وفطنة بالإضافة إلى أنها حساسة للغاية.

صمتها الدائم كان يوحى بشيء ما بداخلها، أياكون
التعبير في بعض الأحيان بالصمت أم
هذا الأخير استسلام معلن؟

شخصية أبيها المتسلط، والصلب المزاج، أثرت كثيرا
في نفسها مما جعلها ترتبك كثيرا، وتتوجس حتى من
خيالها .

كان عمرها أربع سنوات حين حملت أمها ثانية
حنان كانت تنتظر هذا المولود الذي يتحدث عنه
الجميع، أحست في داخلها أنه الأمل المنتظر، الذي
سيضفي قليلا من السعادة إلى حياة العائلة.
في الصباح تناديها أمها: "أنهضي يا حنان لترافقي
أباك إلى المسجد هيا يا حنان"

فتفتح عينيها مع أول شعاع يدغدغ خديها
الصغيرين، وتتناول فطورها الذي كان عبارة عن
حبّات التين المجفّف مع كأس من حليب الماعز، ثم
تأخذ أدراجها لتلحق أباهما، ولكن هناك شيء يعيقها
إنّها نعجة صغيرة تترصدها دائما، تتوجس منها
كثيرا ترتعد أوصالها فتنادي بأعلى صوتها:
"باية تعالي"

فتأتي هذه الأخيرة وهي شقيقتها، من أبيها حيث كان هذا الأخير متزوجا بخالتها من قبل وقد توفيت بعدما وهبت له بنتين هما تسعديت و باية. فكانت أم حنان أمهما الثانية التي منحتهما العطف والرعاية عوضا من أمهما المتوفاة.

تأتي باية بسرعة وتمسك بالنعجة لتمر حنان بسلام الخوف من النعجة ذاتها لم يكن سوى جزء صغير من الذي تعانيه الطفلة الصغيرة، لم تكن تفهم حقيقة الحياة لأن عقلها لا يستطيع استيعاب كل تلك المشاكل، منها الشجار المتواصل بين أمها وأبيها الذي غالبا ما ينتهي بضرب الأم.

صمت أبيها الدائم كان أيضا يؤرقها ويوحى لها بالغموض، لماذا لا يضحك هل أصبح الضحك ضريبة لا نستطيع دفعها؟ أم أصبح من المستحيلات التي يصعب علينا الوصول إليها؟

ما زالت تتذكر مدرسة القرآن، حيث كانت تتسلى مع الصغار تحفظ بعض السور القرآنية وتعيد كتابتها في تلك اللوحة المصنوعة من الحجر وقلم غريب الأطوار كغرابية مزاج أبيها.

حين ينتهي الدرس، تعود إلى البيت مسرعة كالبرق الذي يلقي ضوءه على القرية تجري عبر الحقول فتحمرّ خدودها فتصبح كالوردة حين تتفتح عند بزوغ نسيم الصباح.

في طريقها تمرّ على امرأتين جالستين على حافة إحدى المزارع، تنظران إليها نظرة تعجب؟ تضحكان فتقول إحداهما: "من هذه البندورة الحمراء هاهاها؟"

فتبتسم حنان، وتكمل طريقها إلى البيت غير مبالية. في الريف ذلك الوقت أي قبل الثورة الجزائرية بقليل، كانت البساطة تغطي على كل شيء، ليس هناك ما يوحي على الترف والبذخ بل كل شيء كان لا يستحق العناء.

تجلس الطفلة في ركن من أركان البيت صامتة طول اليوم، أحيانا تفكر في شيء ما هي نفسها لا تدري ما هو، ربما تريد لعبة صغيرة فهي لا تملك واحدة. تحلم أن تلعب مع الأطفال ولكن أباه لا يسمح لها بالخروج من البيت ولا حتى اللعب مع أبناء الجيران فهي كانت سجيّة صغيرة دون ذنب. أيعقل أن يصبح السجن عنوانا لطفلة صغيرة، تريد أن تتفتح كالزهرة بهدوء حتى تكبر وتصبح قمة في الجمال؟

"حنان تعالي تناولي عشاءك، واذهبي إلى النوم"
فترد بصوت منخفض "حاضر أُمي"

جاء اليوم الموعود الذي أنجبت فيه الأمّ وليدها، لقد كان ولدا جميلا يبهج العين ويغرس الفرحة في القلب، لقد سمي إسماعيل كانت العائلة في سعادة

كبيرة وكأنّ أبواب السماء فتحت والأرض أزهرت
لؤلؤا و مرجانا.

لم تسلم حنان من تلك الفرحة التي طغت على الكلّ،
فكان وجهها مشرقا كشمس يوم الربيع الجميل. تمكث
تنظر إلى وجه أخيها وقتا طويلا ، تلاحظ كل
تحركاته ، حين يكون يقظا وحين ينام أيضا، تتمنى
أن يكبر بسرعة البرق حتى يستطيع أن يلعب معها
فهي تحس بالوحدة رغم وجود شقيقتيها باية و
تسعديت. فهاتين الأخيرتين تفضلان الجلوس مع
بعضهما بعيدا عنها ولا يولينها أي اهتمام، ربما
كانت الغيرة التي تفرق الأحباء والأصدقاء، وحتى
الأشقاء.

ولكن لم يمنع ذلك من أن يتخلل تلك الغيرة وذلك
الجفاء مشاعر أجمل ما يمكن قوله أنّها المحبة
والعطف على الطفلة الصغيرة التي لا حول ولا قوة
لها.

قررت، تسعديت في يوم من الأيام أن تخطي دمية من
القماش لكي تلعب بها حنان، هذه الدمية البسيطة
كانت تساوي الكثير لها وكأنها جاءت من عالم آخر.

كانت تلعب بها حنان وتجوب بها أرجاء البيت وعندما تنام تضعها بجانبها، لقد أصبحت جزءا منها ولا تستطيع فراقها. ولكن كالمعتاد هناك ما سيعكر هذه السعادة العابرة التي تشبه السحابة عندما تشعر كبقدم المطر ثم تهلك السماء زخات قليلة منها فتتجلى السحابة ويذهب المطر دون أن ترتوي الأرض.

في يوم من الأيام استيقظت الطفلة في الصباح فلم تجد دميته بجانبها، فأخذت تبحث عنها في كل مكان حتى فقدت الأمل في إيجادها، استسلمت وحزنت كثيرا .

سألتها تسعديت : "أين دميته يا حنان "

فلم تجبها هذه الأخيرة إلا بإشارة بيديها معبرة أنها لا تدري بمرور الوقت كبر إسماعيل قليلا، وكانت حنان منشغلة به كثيرا، تلعب وتضحك معه ربما أرادت أن تنسى نفسها فقدان دميته العزيزة لم تكن تصدق أنها فقدتها، فكلّ يوم تبحث عنها في البستان وبجوار المنزل. وفي يوم من الأيام بينما كانت ترعى في المزارع مع شقيقتها باية ،رأت على إحدى الأشجار شيئا مربوطا وكأنه قماش فلما اقتربت قليلا، لم تصدق عينيها إنها دميته الحبيبة فلقد ربط بها أبوها أغصان الشجرة. بين الصدمة

والخوف كان شعورها يتأرجح فهي لا تستطيع أن
تقول لأبيها: " إنها دميتي أعطني إياها "

فهي تهابه كثيرا . هكذا غادرت في صمت وهي تنظر إليها عن كثب . عندما نرى تلك الحياة البسيطة نشعر وكأننا في حكايات سطرها تاريخ مليء بالمفاجآت، تلك الطبيعة الخلابة التي تنعكس فيها الشمس على الحقول الخضراء فتعطي منظرا رومانسيا رائعا .

من جهة أخرى كان الاستيقاظ بالنسبة للعائلة باكرا مع صياح الديك وزقزقة العصافير، الأم تخبز الكسرة وتحضر القهوة، في ركن آخر من البيت يوجد برميل كبير مصنوع من الطين مليء بالتين المجفف، هذا الطعام البسيط يعجب كثيرا حنان . وربما كان أحلى من أشهى الأطعمة . كانت حياتهم ممزوجة برونق الطبيعة وقسوة الظروف مع ما يكتنفها من بعض الأحداث الحزينة التي تأتي من حين لآخر كطوفان لا يترك شيئا من الفرح في القلوب إلا اقتلعه، ليزرع مكانه أحزانا وأشجانا تنقش في الذاكرة إلى آخر العمر .

ذلك الصباح لم يكن مثل غيره، وحتى السماء اكتست لون الحزن بدورها، استيقظت الطفلة على وقع صوت بكاء أخيها الحبيب إسماعيل، بكاءه كان كخنجر، يחדش قلبها الصغير، هرعت تجري لتري ما به فوجدت أمها قد حملته على حجرها وضمتة إلى صدرها لعلّه يهدأ . سألت أمها :

عینان بکت بلا دموع

أُمِّي

يَا

بِه

مَا

"

فرَدَّت عليها بصوت مهزوم:

"إنَّه مريض "

أخذ الطفل يصيح ويصيح، المغص في بطنه كان حادا أبوها لم يكن يعلم ماذا يفعل، فالطبيب بعيد عن القرية، فهل يكفيه الوقت لإحضاره؟ ولكن لم يكن بوسعه سوى فعل ذلك، فلبس برنوسه بسرعة وقال: "سوف أذهب "

ولكن فجأة قالت الأم: "لا داعي للطبيب لقد فات الأوان".

فنظر الأب إلى ابنه نظرة حزن عميق وكأَنَّها نظرة وداع أخير. كان الطفل كقطعة حلوى تذوب حين تبلل بالماء، أخذت عيناه تنطفئان كما ينطفئ نور الشمعة بهدوء ، وجهه شاحب يميل إلى الصفرة تارة وإلى الزرقة تارة أخرى . ثم فاضت روحه بسلام ، كأنَّها نسمة ريح خريفي هادئ فما كان للأم إلا أن غطت وجهه الجميل وأجهشت بالبكاء. كلَّ هذا وحنان تنتظر بحزن شديد وعيناها تمتلئان بالدموع ، دون أن تسيل على خديها الصغيرين ، لأنَّ ذلك يعتبر بالنسبة إليها استسلام للواقع المرّ . فهي لم تصدق أنَّ إسماعيل مات ، لم تصدق أنَّ ذلك الطفل الجميل الذي لطالما انتظرته ليكبر ويلعب معها مضى وذهب ، لقد كان بالنسبة إليها الأمل الذي سيجعل حياتها أكثر سعادة ، أكثر حرية وأكثر

عذوبة لقد أصبح الأمل عندها، كالمفتاح الذي وقع في فم الأسد عليك أن تجازف كأبطال ألف ليلة وليلة لتتاله، فإما أن تعيش، وإما أن تصبح جثة هامة بعد أن تصبح وجبة دسمة لذلك الأسد.

صاحت بأعلى صوتها: "لا إسماعيل لم يمت إنه حي أنتم تكذبون"

فسقطت على الأرض فحملتها أمها وضمتها إلى صدرها وقالت: "تماسكي يا بنيتي إنه قدر الله ولا يجب علينا أن نقنط، قللي إنا لله وإنا إليه راجعون، أخوك في الجنة ينتظرنا فلا تحزني". تلفظت الأم تلك الكلمات وكأنها أرادت مواساة نفسها أولاً قبل ابنتها فهي لم تدري من التي تحتاج لذلك هي أم الطفلة الصغيرة.

أخذ الأب المكلوم الطفل ليكفنه ويحضر له القبر الذي سيؤويه ، والأم مستعدة لاستقبال الوافدين إلى المنزل لتقديم العزاء.

و بالفعل بدأ الجيران والأقرباء بل كل أهالي القرية يتوافدون إلى منزل العائلة ، وبما أن سي جلول كان إماما فكل الناس يعرفونه هناك ويكنون له التقدير و الاحترام ، لذلك أصبح البيت مكتظا بالمعزين.ومن بين هؤلاء كانت هناك عجوز بلغت من العمر عتيا ، جاءت وجلست تبكي مع الأم المفجوعة وحين رأتها امرأة أخرى متوسدة الأرض قامت وأحضرت

لها وسادة صغيرة كانت على سرير في آخر ركن من البيت ثم قالت :

"اجلسي على هذه يا خالة، فالأرض ستؤلمك"

فما إن رأت الطفلة الصغيرة ذلك حتى هزعت بسرعة المخطوف، وأخذت الوسادة منها، وضمتها إلى صدرها وهي تبكي بحرقة.

نظرت النسوة إليها بحيرة، ما سر تلك الوسادة أكانت تعني شيئاً للطفلة الصغيرة ؟

لم يكن أحد من هؤلاء الناس يعلم أنّ لهذه الوسادة حكاية أمل ضاع في لحظة حكاية سعادة تلاشت بسرعة دون أن تكتمل. وسادة أخ كان شعلة نور لأمل ضائع. كانت لإسماعيل ،فرائحته الزكية مازالت تنبعث منها .

أخذت النسوة يتساءلن ما بها ، لماذا أخذت تلك الوسادة؟حتى تمتمت الأم في أذهنهن:"إنّها لأخيها إسماعيل".

فاحتضنت حنان الوسادة بقوة وهي تبكي والكل يبكي معها. لم يكن حدث موت إسماعيل وحده الذي طبع تلك الأيام بل هناك ما كان أعظم ألا وهو اندلاع الثورة التحريرية الجزائرية في أول من نوفمبر 1954 حيث انطلقت أول رصاصة من أعالي جبال الأوراس معلنة انطلاق أول شعلة نار على المستعمر الفرنسي الذي طالت خيبته في بلادنا

، وأول شعلة أمل للحرية لشعبنا الحرّ، الذي ما رضي يوما بالعبودية الحمقاء التي أرادت فرنسا أن ترسخها في ذهنه .

كان يوما باردا . الأمّ جالسة في ركن من البيت تبكي حسرة على فقدان ابنها الصغير إسماعيل ، فالجرح ما زال ينزف ولم يلتئم بعد. وحنان جالسة أمامها كئيبة تحمل هما أكبر من سنّها الصغير. طفولتها كانت أشبه ما يكون بقطرة ماء في بحر من الأحزان والشقاء. لم تعشها كباقي الأطفال، لم تلعب، لم تركض، لم تغن أغنية الدمية الجميلة لم تسبح في عالمها الذي لا يمنح إلاّ الفرح والسرور، لم تقطف زهورا ناعمة كنعمتها.

ولكن حظها من الطفولة سوى شوك الزهور الذابلة في بستان كئيب المنظر عنوانه بيت السي جلول يعني أباه.

دخل هذا الأخير . نظر إليهما وفي وجهه نبرات حزن عميق ممزوج بخوف فقال:

"امسحي دموعك، فهناك ما هو أهول من موت ابننا، لقد بدأت الحرب، ولا ندري إن كنّا سنعيش أم نهلك جميعا ونلحق بإسماعيل."

فعلا قامت الحرب بين جبهة التحرير الوطني والجيش الفرنسي صوت الرصاص يسمع في كلّ مكان غالبا ما كانت القرى تحاصر وتقصف من طرف المستعمر، وكان الرجال يعتقلون فحلّ

الرعب مكان الأمان مما جعل معظم السكان يغادرون القرية إلى العاصمة.

حنان التي كانت مازالت طفلة صغيرة لم تفهم هذه الحرب القاسية. سألت أمها يوما:

" ما هذه الأصوات يا أمي؟ "

"إنّه قصف للطائرات في القرى المجاورة "

تجيبها وهي متوجسة مما سيحدث لهم، والدها بدوره، كانت عيناه تعبران عن خوف دكين، فالكلّ كان مرعوبا وينتظر اقتحام العساكر للبيت بين لحظة وأخرى.

في يوم من الأيام عادت حنان كعادتها من المسجد مسرعة وكانت تجري مصدرة صوتا قويا بحذاءها، حينها كانت القرية محاصرة من طرف الجنود الفرنسيين، أخذت تجري وتجري وصدى صوت حذاءها ملأ الأرجاء، كأنه مطارق في دكان حداد. الجنود بسماعهم ذلك الصوت ظنّوا أنّ أحد المجاهدين، كان فارا ويركض في مكان ما من الحي. لذلك قاموا بوضعية الاستعداد مصوّبين ببندقياتهم منتظرين ظهور المجاهد. كم كانت دهشتهم كبيرة حين ظهرت الطفلة الصغيرة، توقفت قليلا تنظر إليهم مندهشة، فأسقطت لوحتها على الأرض من شدة خوفها.

"

"إذهبي

قال لها أحد العساكر.
حملت لوحتها بسرعة ودخلت البيت، ماسكة صدرها
بيدها لتخفف قليلا من دقات قلبها الذي كاد أن
يتوقف ازداد القصف في كل مكان، صوت
الطائرات يفوق صوت الأذان في المآذن وخوفا من
أن يأتي دور قرية السي جلول في القصف فكر هذا
الأخير في الرحيل، كانت الجزائر العاصمة أكثر
أمنا، حيث لا تقصف الطائرات لأن معظم الفرنسيين
يقطنون هناك، مما دفع بأهل القرى إلى النزوح من
كل حذب إليها.

ذلك اليوم ظلّ محفورا في ذاكرة الطفلة الصغيرة،
ذلك اليوم الذي بدأت فيه تتغير حياتها، أحلامها
كانت أكبر من تصورها، رأت في الرحيل إلى
العاصمة كأنه رحيل إلى عالم آخر، يجلب لها
السعادة التي حرمت منها في الرّيف.

أثناء الطريق، بدأت تنظر إلى الأبنية العالية التي لم
تعتد على رؤيتها، ذلك العلو الذي يحمل الشعور
بالدهشة، والناس كثيرون في الشوارع ليس كما في
الرّيف الكل يعرف بعضهم البعض أما هنا فلا أحد
يعرف الآخر.

الآن وقد أصبح عمرها ست سنوات بدت وكأنّها تفهم الحياة أكثر من السابق ، شعرت أنّ هذا الرّحيل ، سيحمل لها المفاجآت تتحدث مع نفسها وتتساءل إن كانت الأيام المقبلة ستأخذها إلى عالم أحلامها الذي طالما انتظرتّه وأرادت الوصول إليه.

ما تزال تتذكر جيّدا تلك الاستضافة الحميمة التي تلقوها من طرف عمها السي العيد والذي فتح لهم باب داره ليملكوا فيها ما تيسر من الدّهر. ما تزال تتذكر أيضا نظرات زوجة عمّها التي كانت ممزوجة بالترحيب والانزعاج من الضيوف المحتومين ، تذكر أيضا ذلك البيت الكبير والجميل الذي لا يشبه بيتهم الذي كان في الريف ، كلّ شيء فيه جميل ، يشعر أنك في قصر من قصور الحكايات.

تذكر تلك المائدة المملوءة بأشهى الطعام، تغمض عينيها ثمّ تفتحهما لتتأكد أنّها لا تحلم وأنّها حقيقة تعيشها لحظة بلحظة. وفي خضم تفكيرها في كلّ ما تراه من حولها تصرخ في وجهها ابنة عمّها:

"أبعدي ملعقتك عن أكلي وكلّي من جهتك!"

كانت الكوسة المحشية باللحم ، تأخذ حنان اللحم تأكله وتترك الكوسة فارغة لتكون من نصيب ابنة عمّها، مما جعل هذه الأخيرة تغضب وتثور.

في المساء كان اللعب مع بنات عمّها حليفاً . لم تشعر يوماً بهذه السعادة و تتساءل في نفسها " هل ستدوم هذه النعمة؟ أم ستزول دون رجعة." كم تمنّت أن تبقى إلى الأبد في بيت عمها أين نسيت مزاج أبيها المتعصب و ضعف أمها المتوالي و إهمال أختيها لها.

في بعض الأحيان نحتاج إلى شيء ما يغير حياتنا و ينسينا ما قاسيناه في الماضي، في تلك الأيام عاشت طفولتها الحقيقية التي حرمت منها من قبل، و لكن هيهات!. فما فتئت أن تلاشت أحلامها حينما بدأت زوجة العمّ تعلن ازدراءها و انزعاجها، مما دفع بالسي جلول العمل ليل نهار لتوفير المال الكافي لاقتناء بيت لعائلته، أما عنها فلم تكن تهتم بما يشعر به الكبار فهي تلعب و تمرح وتأكل الأكل الذي تحبّه، و تنام على فراش ناعم الذي يأخذها إلى أحلامها في كل ليلة لا تستيقظ منها حتى يلقي الصباح نوره على وجهها الجميل.

هكذا مرّت تلك الأيام إلى أن جاء ذلك الصباح الذي أخذ منها بسمتها و فرحتها دون سابق إنذار، دخل أبوها إلى الحجرة مبتسماً نظراته كانت توحى بشيء ما أسعده.

" انهض يا امرأة و حضري الحقائب. سنغادر! "

كلمات كانت كالصّاعقة وقعت على أذنيّ الطفلة الصّغيرة أحسّت و كانّ الحياة توقفت عند تلك اللّحظة الغير متوقعة " أنغادر؟" سائلةً أباه بصوت خافت مندثر. فيجيبها " نعم يا بنيّتي حضري حقيبتك "

تأسعديت و باية كانتا سعيدتين بالرحيل و الأم كذلك إلّا هي، لم ترد ترك بيت عمّها لأنها ترى فيه سبباً لسعادتها و ترويحاً لنفسها، لقد كانت سعيدة مع بنات عمّها أكثر مما كانت مع شقيقتها.

تنساءل في أعماقها، ربما وجدت السعادة في الرحيل ربّما أأأدخلي أبي إلى المدرسة فقد وعدني حين كنّا في الريف قال لي: "عندما نذهب إلى العاصمة سأسجلك في المدرسة".

حين تذكرت ذلك فرحت واستسلمت للواقع الذي لا مفرّ منه .أملها في أن تدخل الى المدرسة وتدرس كباقي الأطفال الذين هم في مثل سنّها منحها الراحة والطمئنية التي تلهمها التقدّم نحو الأمام ونسيان كلّ ما يعكر صفو أحلامها .

البيت الجديد لم يكن بجمال بيت عمّها يحوي غرفتين واحدة جعلها أبوها للسكن والأخرى بقالة يبيع فيها مواد غذائية ، ريثما يجد مهنة أخرى ،فهو كان يطمح في منصب في التعليم ، بما أنّه كانت له تجربة في تدريس الأطفال في الريف.

ما زالت تتذكر حين ينادي عليها أبوها في الصباح الباكر:

"تعالى يا حنان أمكثى فى البقالة ريثما أجلب الحليب"

"

فتوقظها أمها : "إنهظى حنان".

فتفتح عينيها وتتمنى لو أنها لم تفتحهما ومكثت فى أحلامها الجميلة .

تجلس فى البقالة تبيع وقد بدأ الناس يخرجون من بيوتهم كلّ ذاهب إلى شغله ، وترى الأطفال حاملين حقائبهم متجهين إلى المدرسة ، فتتحسر كثيرا ، ويجف قلبها، وتمكث وجمة حتى يحضر أبوها ليأخذ مكانها ، وتعود إلى البيت منكسرة ،مخدولة ويائسة.

حين تشعر ك الحياة أنها أخذت منك أشياء كثيرة تحبّها فحتمًا ستكون أتعس إنسان ولكن صغر سنّها جعلها لا تستوعب أنّ للقدّر أحكامه، وأنه علينا الإيمان بخيره وشرّه . فكم من أحلام تهاوت مع أول إصطدام مع الواقع . وكم من أمانى تعلّقنا بها مضت كنسمة أخذتها الرياح إلى بعيد.

المدرسة كانت تعني لها الكثير ، تمنيت مستقبلا زاهرا ترتوي منه طموحاتها ، أرادت أن تصبح نجمة ، تبهر الناس بوميضها . لم تكن من الأطفال الكسولين الذين لا يهتمهم سوى الأكل والشرب واللعب . ولكن عقلها كان أكبر من عمرها ، تتمنى أن تدرس لتبني ذاتها وتصبح إيطارا مهما في المجتمع . فهل يا ترى سوف يتحقق لها ذلك ؟

في بعض الأحيان تكون الأحلام وسيلة تقودنا إلى ما نصبو إليه في عالم خيالي نحقق فيه كل طموحاتنا ، نعيش تلك اللحظات وكأنها حقيقة ونتمنى أن لا يوقظنا أحد حتى نمكث في عالم أحلامنا إلى الأبد . ولكن هيهات أن يتحقق لنا ذلك ، غالبا ما كانت صرخة أختها باية ، وهي تناديها كصفعة تعيدها إلى واقعها الذي تعيشه .

"هيا تعالي ساعديني في شغل البيت."

فترد خائبة " حاضر."

تتوالى الأيام تلوى الأيام وتكبر الطفلة وتكبر معها معاناتها فلا أثر للمدرسة في حديث والدها فنشفت أنه نسي الأمر تماما .

هاهي الآن في الثانية عشر من عمرها ،وأملها في الدراسة إنطفأ كما تنطفئ الشمعة بهدوء وأصبح إنشغالها بأعمال البيت ورعاية إخوتها الصغار لا يترك لها سبيلا للتفكير في مستقبلها تتألم بداخلها ولا أحد يشعر بها .ومما أضفى عليها من الألم والحزن ما تراه عيناها من وقائع مؤلمة تعكر حياتها من حين لآخر .

لا تنسى أبدا ذلك الصباح الذي استيقظت فيه على وقع شجار لم تتقف منه سوى أن أباهما إنهال على أمها بالضرب حتى شج رأسها ، وأصبحت الدماء تنهمر على وجه الأم ، فارتعدت أوصال حنان من روع ما رأت وتصيح بأعلى صوتها:

" توقف يا أبي أرجوك "

فاستشف من كلامها أنه ارتكب خطأ بفعل غضبه الجنوني فغادر تاركا الأم وكأنها جريح حرب يتخبط في دمائه .لماذا هذا الشجار الملعون؟ ربما لأمر لا يستحق كل تلك المعركة ،ربما المرأة ارتكبت خطأ لا يحبه الأب في يوم يشبه هذا اليوم كان الشجار لأن المرأة نسيت ومرت أمام نافذة المنزل فراها بعض الرجال الذين كانوا يعملون هناك ، فالحرمة في ذلك الوقت كادت أن تكون مقدسة .وخاصة عند بعض المتعصبين.

أخذت حنان قطناً ومسحت الدّماء من وجه أمّها وضمّدت جرحها والدّموع تنهمر على خديها والأمّ توأسيها: "لا عليك يا بنيّتي. أنا بخير". ثمّ قامت هذه الأخيرة إلى أشغالها وكأنّ شيئاً لم يكن، وأما حنان فما زالت على وقع الصدمة تنتاب جسمها قشعريرة تنظر إلى أمّها وهي تحضر الطّعام، ورأسها ملفوف بالضّمام.

إنّ جرح الجسد سوف يشفى حتما ولكن يبقى جرح القلب الذي سينزف إلى الأبد، ويرسخ في ذاكرة الطفلة يعاودها ذلك المشهد كلّما رأت جرحاً ينزف. وتمرّ الأيام وتطوى صفحاتها كما تُطوى صفحات كتاب سوف يقرأ من جديد بعد حين.

أصبحت أمّها على وشك الولادة ثانية، جاءت القابلة إلى المنزل لتساعد الأمّ، لقد أخذت وقتاً كبيراً هذه المرة، لاحظت حنان أن القابلة، تطلب الماء الساخن من حين لآخر، وبعض شراب الأعشاب، وكان الولادة باتت مستعصية. تملكها خوف شديد من ان تفقد أمّها الحبيبة، أخذت تتضرع إلى الله بالدعاء وتستتجد به إلى أن سمعت بكاء الطفل فرحت كثيراً ثم هرولت نحو الغرفة محاولة الدخول ولكن منعها القابلة قائلة: "ما زال طفل آخر؟"

وبعد برهة رن بكاء الطفل الثاني. إنه توام ! إنه توأم ولد وبنت ولد وبنت كلمات صاحت بها القابلة لتزفها للعائلة!

فرحت الفتاة بهما فرحا لا يوصف وشكرت الله وحمدته ثم حضرت نفسها لتتبنى رعاية الطفلين في فترة مرض أمها حيث، كانت تعتني بهما و تحضر لهما الحليب وتغيّر ملابسهما ولكنّ التعب أرهاقها وتشعر وكأنّ جبلا وضع على ظهرها وهي مازالت صغيرة لا تقوى على تحمل كلّ تلك الأعمال، فتصيح على اختها بآية :

"تعالى وساعديني على الأقل عوضا من جلوسك بلا فائدة ."

فترد بآية بكلّ برودة : " إعتني بهما وحدك إنه شغلك ، فلدي ما أعمله أنا "

فتستسلم المسكينة لجفاء شقيقتها فلقد تعودت على ذلك فأصبح شيئا يُتوقع منها ، فغالبا ما كانت بآية تغار منها ، فهي لا تنسى أبدا يوم ذهبت أمّها إلى أحد الأقارب لتحضر عرسا ، فمكثت هناك عدّة أيام، فنفذ الأكل الذي تركته الأم فلم تجد حنان ما تسد به رمقها ، فبحثت كثيرا عساها تجد أكلا ما ، بينما هي كذلك حتى لمحت شقيقتها في أحد أركان

البيت تأكلان شيئاً ما . فاتّجهت إليهما و قالت لهما :
" أعطوني قليلاً من الأكل فأنا جائعة! " .
فردّت باية و فمها ممتلئ بالفطير " ليس لدينا أكل
. اذهبي من هنا!! " .

- " يا لك من جشعة و كاذبة! " .

فصبرت و أخفت غضبها حتى لا تغيظها ، و لدن
عودة أمها قصّت لها ما حدث و ناجتها أن لا تتركها
معهما ثانيةً .

تلك الأيام اتسمت أيضاً بأحداث وطنية أبرزها
مظاهرات 11 ديسمبر ، حيث خرج الشعب
الجزائري برمته إلى الشوارع للمطالبة بالاستقلال،
فالحرية كنز يستحق أغلى الأثمان! .

السي جلول كغيره أغلق دكانه مستجيباً للإضراب
الذي دعت إليه جبهة التحرير الوطني . أصوات
المتظاهرين كانت تصل لمسامع الفتاة فهي ترى في
تلك الأحداث تغييراً للحياة الروتينية التي كانوا
يعيشونها ، لم تكن تخاف من الحرب لأنها تعي جيداً
أن الحرية لا بد لها من تضحية . و بالفعل انتزع
شعبنا حقه المغتصب ، وفرحت العائلة بالاستقلال
فبدأ السي جلول يبحث عن بيت آخر أوسع كما
راودته فكرة إجراء مسابقة للالتحاق بالتعليم، هذا
كلّه كان يبعث في قلب الفتاة نوعاً من

الراحة النفسية آملّة في غد أفضل يرسلها إلى عالم أحلامها المنسية.

كانت تتسلّى كثيراً بالتوأم الجميل . ترى فيهما بذرة السعادة المهجورة و فرحة الطفولة التي افتقدتها كثيراً و لكن كعادتها كلّما تعلّقت بأمل ما ، ضاع و ذهب دون اكتمال تلك الفرحة!.

أيعود الحزن ذاته مرة أخرى ليؤلمنا كما ألما من قبل؟ . أ تعود جراحنا لتتلف مجدداً ألماً و همماً يصاحبنا طول حياتنا؟ .

فعلاً! في ذلك اليوم الذي نقش في ذاكرتها مرض التوأم مرضاً شديداً جعلهما يتقيّان طول اليوم مع مغمص في بطنيهما ، بكاءهما لم يتوقف منذ تلك الصبيحة ، ذلك البكاء الذي ذكّرها بحزن عميق مدفون، بكاء يحمل معنى ألم الفراق. لم تكن لتصدق ما يحدث حولها، تريد أن تتجاهل ذلك المرض الذي أصاب الطّفلين. أمها حائرة في أمرها لا تعلم ما يجب فعله، لكن حنان لم تستسلم بعد!.

ذهبت إلى المطبخ محاولة أن تحضّر لهما مشروباً من الأعشاب، و من شدة الخوف و الارتباك كلما حضرت واحدا و وضعت له ليبرد ينقلب من بين يديها فتعيد تحضير شراب آخر.

تحملق في والدتها و هي تبكي فيزداد قلقها و تقول في نفسها " لا!! لا يجب أن نقنط من رحمة الله . هناك أمل فسيعيشان " . فتحملهما بين ذراعيها وتهزهما قليلا لعلّ ذلك يخفف عليهما الألم .
في ذلك الوقت لم تكن تتوفّر لديهم وسائل الإتصال فلم يستطيعوا إخبار السي جلّول حتى يأتي ويأخذهما إلى المستشفى ، فذهب أحد الجيران للبحث عنه في عمله ، فأخبره فأتى مسرعا . أما في البيت، فقد كان بكاء الطفلين يسمع في كلّ مكان، وفي لحظة بدأ الصوت يخفت شيئا فشيئا ، فأخذت الفتاة تسترجع ذكرياتها المؤلمة .

تذكرت موت إسماعيل ، تذكرت ذلك اليوم الحزين الذي فقدت فيه سعادتها وفرحتها . لقد إزرق وجه الولد وأخذت عيناه تشخصان، وتوقف نظره إلى الأعلى وكأنّه يبصر شيئا ما . وفجأة حلّ صمت رهيب في الغرفة ، معلنا موت الطفل الصغير غطّته أمه ، واستعدت لاستقبال الناس الذين بدأوا يتوافدون إلى المنزل للعزاء . حملت الطفلة الصغيرة التي كانت مازالت تتأوّه ألما فوضعتها في ركن من البيت منتظرة أن تلقى حتفها هي الأخرى .

دخل السي جلول ورجلاه ثقيلتان من هول المصيبة،
لقد تأخر في العودة إلى المنزل ، ولم يكن بوسعه أن
ينقذ فلذة كبده ، لقد ضاع منه ولد آخر وهو الذي
كان يحب كثيرا الذكور . بقيت الطفلة الصغيرة
تنتظر مصيرها ، فالأقدار بيد الله ولكل أجله الذي
كتب له .

كانت حنان جالسة مندهشة، وكأنه سراب لا ينتهي ،
جفت دموعها وأخذت تتذكر إسماعيل وحبها له
فالتاريخ يعيد نفسه .

دخلت امرأة من الجيران ، فسألت الأم "لماذا مات
الولد ؟ بماذا كان مريضا؟

"كان الإسهال الحاد! ". أجابتها بحزن عميق.

ردّت المرأة بانفعال "ويحك ! لماذا لم تعطيه مغلى
الأرز؟ فإنه نافع جداً للإسهال !"

ثم أردفت " يا للخسارة ضاع الولد بين أيديكم والحلّ
كان موجوداً !!!"

قالت تلك الكلمات التي وقعت على الأم المفجوعة ،
كضربة فأس على قلبها الضعيف ، ولكن الفتاة ما
إن سمعت كلام الجارة حتى أسرع إلى المطبخ
وبحثت عن الأرز وأعدت شرابا لأختها التي كانت
مازالت تنن من المرض .

فما إن شربت الطفلة الصغيرة الشراب ، حتى ارتاحت ونامت واحمرّ وجهها .فتنهدت الفتاة تنهده طويلةً وقالت في قرارة نفسها " يا ليتنا علمنا بالدّواء قبل موت الولد! يا للخسارة !" فما أن فتئت أن تذكرت أنه قدر الله الذي يقول للشيء كن فيكون ، إنّه القدر الذي لا نستطيع تغييره ، شاء الله أن يموت الولد وتعيش البنت التي سوف تصبح يوما ما فتاةً يافعةً .

أما السي جلّول فقد حزن حزنا شديدا ربما ما زاد من ثقل أساه هو فقدانه للولد مرّة أخرى .لاسيما وقد بقي لديه الآن ذكر واحد فقط الذي أصبح يراه كالجوهرة النادرة ، يحافظ عليه كما يحافظ على عينيه ولا يسمح لأحد أن يمسه بسوء فمن حين لآخر تسمع صراخ إحدى أخواته " توقف يا سعيد . فحتمًا أنّه شاكس أو ارتكب مشكلا .فيبحث عن والده حتى يحتمي وراءه ، ويفلت من العقاب . فهو المدلل والمعزز .فيصبح فيما بعد الأمر الناهي ، يُحقّق له كلّ ما يريده .

بحرمن الهموم صادف العائلة جعلها تعتاد على
الأحزان، فالموت أصبح ضيفهم المعتاد، لأحد منهم
يستطيع أن يواسي الآخر، وعبرات الأسى تغمر
أعينهم.

الأم تنهمك في شغل البيت طول النهار لعلها تنسى
همّها ، والأب منغمس في عمله لعلّ ذلك يخفف من
آلامه الدكينة ، يحاول إخفاء ما يشعر به بابتسامة
ممزوجة بطعم الأسى .

أما الفتاة فكان الصمت ملجؤها الوحيد، لا تتكلم إلاّ
ببعض الكلمات الموجزة في حال الضرورة.

لقد تزوجت تسعديت البنت الكبرى فتركت فراغا
آخر في البيت وباية أصبحت مخطوبة ، وتنتظر يوم
زفافها . مما زاد في عزلة حنان وإحساسها بالغرابة ،
ترى أنها سوف تصبح وحيدة . لم تكن في أتمّ
السعادة مع شقيقتيها ولكن كانت على الأقل تستأنس
بهما ، لم يبق لها سوى الطفلة الرضيعة التي لطالما
تحدّثت معها ، نواشتكت لها ما تعانيه تحاول إقناع
نفسها أهاستفهمها رغم صغر عمرها. أما أخوها
المدللّ سعيد فلم تجني منه سوى المشاكل بسبب
دلاله المفرط.

مع مرور الوقت أصبح السي جلول يفكر في شراء
بيت آخر أوسع وأجمل فلقد ادّخر بعض المال لذلك،
فأخذ يبحث ويسأل هنا وهناك حتى يجد ما كان
يصبو إليه .

ما زالت تتذكر ذلك اليوم الذي دخل عليهم والدها بوجه غير الذي اعتادوا عليه ، فلقد كانت الفرحة ترقص في عينيه ، فأحست حنان أن شيئاً ما سيحدث ، ولكن هذه المرة سيكون حدثاً يجلب السعادة والفرح .

فانشرح صدرها ، وتغيّرت ملامحها وخاصة عندما سمعت والدها يقول :

" لقد اشتريت منزلاً جميلاً فاستعدوا للرحيل . "

أخذت تفكر في المستقبل ، وما سيجمله لها في طياته ، أليكون أحسن من الماضي ؟ فتغوص في أحلامها التي تأخذها إلى عالم جميل لا ترى فيه سوى الأشياء ، التي تحبها وتصبو إليها ، دون مشاكل ودون مصاعب تعترضها .

ترفرف روحها الصغيرة مع نسيمات هادئة وتطير فوق قوس قزح من نسج خيالها وتزركش ألوانه وجهها المتبسم . ثم تفتح عينيها لتجد والدها ينظر إليها في استغراب قائلاً :

" ما بك يا بنيتي ، هل أنت نائمة ؟ "

فتضحك وتقول : " لا يا أبي " وتغيّر وجهها مخفية سعادتها التي لا توصف .

تلك الليلة ، كانت طويلة جداً بالنسبة لها ، تتوق إلى الصباح وتنتظره في استعجالٍ تتخيل ذلك المنزل، ترى فيه بستانا وغرفا كثيرة وواسعة ، تزيّنه جدران مطلية بأجمل طلاء .بينما هي منغمسة في التفكير حتى غلبها النعاس ، فنامت نوما لم تنمه من قبل .

حزم الأمتعة كان سريعا لأنّ الكلّ كان مستعجلا لرؤية البيت الجديد ، الكل كان يطمح في تغيير، الظروف والمكان اللذان حملا كثيرا من الهموم والآلام.

جاءت السيارة ، وانتقلت العائلة إلى المنزل الجديد. لم تصدق حنان حين وطئت قدمها مدخله لقد كان أروع مما كانت تتصوره. الأشجار تحفه من كل جهة ، منها شجرة التين والمشمش والبرقوق والعنب والبرتقال. غرفه كانت جميلة وواسعة ، تطل على حديقة رائعة وكأنها جنة فوق الأرض . قضت العائلة يومها في ترتيب الأثاث حتى أنهكهم التعب ، فاستسلموا للنوم .

لا تزال تتذكر تلك الرائحة الزكية المنبعثة من البستان ، مع نسيمات الليل الهادئ ، لقد كانت تنبعث من شجرة الياسمين ومسك الليل، بقيت تذكارا لازمها طول حياتها تتذكرها كلما دغدغت أنفها تلك الرائحة .

في يوم جلست تحت شجرة البرقوق ، صاحبته
أختها باية أخذت تقطف الثمار المتدلية من فوقها،
فتناول أختها وتأكلا لقد كان لذيذاً.
"أقرصيني لأعرف إن كنت أحلم أم لا !!"
فردت باية:

"أنا لا أصدق ربما قد متنا ودخلنا الجنة !!"
فانفجرتا من الضحك فهما لم تضحكا هكذا منذ زمن
طويل .

ربما كانت ثورة على الحزن الذي لازمهما، فشعور
الفرح غادر قلبيهما منذ موت إسماعيل.
الحياة تمنحنا من حين للآخر وقتاً لنسيان ماضى
من الأحزان والهموم لذلك لا يجب علينا تفويت تلك
الفرصة.

أصبحت الآن شابة يانعة في السادسة عشر من
عمرها، ازداد جمالها وذكاؤها ، شعرها الطويل كان
يتدلى على كتفيها، ويصل إلى خصرتها ، كانت
خدودها الحمراء كالوردة المتفتحة تزين وجهها
وتبعث فيه نورا ممزوجا بالبراءة والعنفوان، لم تكن
مغرورة بل كانت متواضعة ، تؤمن بأن الجمال
الحقيقي يكمن في الروح وليس في الجسد.

كبرت وأصبح الخطاب يقرعون باب المنزل من حين لآخر، لم تكن تفهم جيدا معنى الخطوبة ، أفيها

السعادة التي فقدتها في عزوبتها ام هي شقاء يكمل الشقاء الذي عاشته، مع الظروف القاسية ورؤية أمها

السجينة، في سجن إسمه بيت الزوجية؟

إنها لا تريد أن تعيش كما عاشت أمها، ولا تريد

زوجا يشبه أباهما هي تحلم بالحب ، وبالعطف

والحنان الذان فقدتهما في طفولتها وفي شبابها، تريد

رجلا متفهما يقدر طموحاتها، يكرم أنوثتها، ولا تريد

جلادا يجعل حياتها نكدا وعذابا.

كل هذا بدا راسخا في مخيلتها هي وحدها لم يكن

احد يحس بها، ولا يعلم ما تريده هي.

عند مجيئ الخطاب، لا تُسأل عن رأيها، يرفضون

ويقبلون دون أن يعيروا أنفسهم السؤال إن كانت تلك

رغبة الفتاة أم لا؟

تتساءل في نفسها ، أليس لي الحق في اختيار

فارس أحلامي !أيجب علي الرضوخ لما يرونه هم

أنسب ولا يحق لي الاعتراض؟!

شعور خفي باليأس يطغى على قلبها. وروحها تكاد

تختنق ، وكأنها أحست أن القدر يخفي لها شيئا ما.

لم تنسى ذلك اليوم الذي جاءت فيه إحدى قريباتها

لتخطبها لإبنها ، لقد كانت تتردد من حين لآخر إلى

بيتهم ، فلقد لاحظتها حنان وهي تراقب تصرفاتها،

لم تنسى تلك النظرات المحدقة إليها كلما قامت بعمل من أعمال البيت.

لقد فطنت المرأة إلى أن الفتاة تصلح لتكون ربة بيت ممتازة فهي تتقن عملها، وتطبخ جيدا وهذا ما يبحث عنه من يريد ان يتقدم لخطبة فتاة خاصة في ذلك الزمن الذي كانت فيه المرأة لا ترقى الى أعلى المراكز كان دورها يقتصر فقط داخل البيت.

لقد رأتها في إحدى المرات ، وهي تحضر الكسكس، وأعجبها ذلك فما كان لها إلا أن قررت أن لا تترك الفريسة ليأخذها شخص آخر.

لقد كانت كالصياد الشغوف للاصطياد ، في صحراء قاحلة ، تبدو فيها الفريسة ، كنقطة حبر على صفحة بيضاء.

لقد لاحظت الفتاة ذلك ، وتيقنت منذ تلك اللحظة أنها ستقع في شباك الزواج ، ولا مفر لها من الإستسلام للأمر الواقع.

أحيانا نجد أنفسنا ، مرغمين على قبول أشياء لم نقتنع بها بعد وإنما هو الهروب من أسلوب حياة سئناها ونطمح في التغيير إلى الأفضل ربما هو قمار بحياتنا إما سنكسب في الأخير أو سنخسر كل شيء!!

فرحت أم حنان كثيرا بهذه الخطبة لأن هؤلاء الناس من أقاربهم ويعرفونهم جيدا، يقولون ان من تعرفه خير ممن لاتعرفه وأما أبوها فقد كان مترددا نوعا ما إلى أن تشجيع الأم جعله يوافق ولكن الغريب انهما لم يسألا الفتاة عن رأيها، في هذا الزواج الذي أصبح كاتفاقية أبرمت بين طرفي الحرب لقد جعلوها كالضحية التي تمضي إلى مصيرها ، دون أدنى اعتراض .

لم تكن تعرف جيدا ذلك الشاب، تتذكر فقط أنه كان يزورهم مع أهله بين الحينة والأخرى لم يتكلم معها قط ، ولم يخطف ولو نظرة عابرة ناحيتها كما يفعل ذلك بعض الشبان الذين هم في سنه كانت تجهل الكثير عن شخصيته وعن طموحاته .

لقد تمننت لو أنها تكلمت معه قليلا ، لتعرف كيف يفكر، ما ذا يحب وماذا يكره. وما أرقها، أنها رسمت صورة لفارس أحلامها ورسمت أيضا عالم حياتها الزوجية في لوحة فنية ، وضعت فيها كل ما كانت تحلم به وتساءلت في قرارة نفسها ان كان الواقع سيحقق لها أحلامها أم سيتحطم كل شيء دون سابق إنذار. لم ترد حياة كالتى عاشتها من قبل، فهي تتوق للتغيير.

تمت الخطبة ، والفتاة مستسلمة لهذا الزواج الذي وقع عليها كالصاعقة المفاجئة الكل فرحون إلا هي، لقد كانت تشعر بحيرة قاتلة ، لم تفهم أبدا حقيقة إرادتها إنه نوع من الإستسلام فقط ،كلما تحدثت مع أمها في الأمر،تقول لها نفس المقولة دائما:

"إنهم طيبون، وسوف تعيشين في أحسن حال"

فتصمت الفتاة وفي داخلها جواب يقول:

"ما ادراك يا أمي إن كنت سأعيش في أحسن حال ،

ام يزداد حالي سوءاً؟"

في فترة الخطوبة،كان خطيبها يزورهم،فتتظر تلك الزيارة بفارغ الصبر،لعلها تجد فيها إجابة لأسئلتها المحيرة.ولكن هيهات ، لم تجني من زيارته سوى الصمت الرهيب، واللامبالاة ، تتنظر إليه لعله ينظر إليها فالنظر يحمل كثيرا من المعاني الجميلة ، ويبعث في الروح لمسة اعجاب ، وخطفة حب ربما ساعدها على تقبل ذلك الواقع المفروض عليها.

للاسف كان الرجل منشغلا عنها بالحديث مع أبيها بأمور لا تعنيها بل تزيدها ضجرا وقرفا لا يهتم بها ولا بشعورها ، وكأنه صخرة جليد تجمدت في يوم الصقيع في يوم صعد إلى السطح ، فتنبتعت خطاه لعلها تتحدث معه قليلا في أشياء تخصهما ، ولربما بعث ذلك الحديث أملا جديدا في قلبها المنكسر.ولكن ما أن لمحت عيناه جسدها في ظل الشمس المنعكس

عليها حتى أخذ أدراجة إلى السلم وغادر دون أن يتفوه ولو بكلمة واحدة.

حين يخيم الظلام يورقها التفكير في مستقبلها، فهي تقول في قرارة نفسها: "إلى أين أنا ذاهبة؟" وكأن سرابا كان ينتظرها تتمنى لو ينتهي هذا الكابوس ، ويتقدم إليها رجل آخر أحسن من قريبها ذلك ، إنها لا تشعر أبدا بميل إليه ، لا تقترح بقدمه ، ولا تطير روحها لإستقباله ، كما تفعل باقي المخطوبات اللوات يذوبن عشقا بخطيبهن ، لا تحلم به في الليال الطوال ، تراه مجرد رجل جامد لا يعني لها أي شيء.

كانت فترة الخطوبة طويلة بالنسبة لها ، وقد تمتنت لو كانت أطول من ذلك ، وكأنه هروب من واقعها ومن المستقبل المجهول.

"ما بك يا حنان ؟أراك تفكرين كثيرا هذه الأيام .ياترى في ماذا؟"

" لا أدري يا باية أنا نفسي حائرة في أمري، ولا أدري ما أريد!"

" انت محظوظة ، انك الآن مخطوبة ، وخطيبك تتمناه كل بنات العائلة ، وهن يحسدنك عليه."

" يا ليتني أستطيع أن أنسحب وأتركه لهن!"

"يا لك من مجنونة أنت لا تشعرين بالنعمة التي
انت فيها أنظري إليّ أنا لقد طلقني زوجي ،وأعاني
من مرارة الطلاق ، ولا أشتكى ، اممم كم انت
غبية"

غادرت باية وتركتها ، مستمرة في تياهانها ، وكأنها
في دوامة لا تنتهي.

وا لدها أصابه القلق ، وخاصة حين أراد ان يتقدم
لخطبتها رجل آخر ، من بلدتهم ، كانت لا تعرفه
ولاكن سمعت عنه انه كان من ثوار جبهة التحرير
الوطني .

راودت السي جلول فكرة فسخ الخطوبة الاولى،
لأن الخاطب الجديد أعجبه ، أما عن حنان فقد كانت
تراقب الأحداث عن كثب وكأنها ، ليست معنية
بالأمر، لا أحد يأخذ برأيها ، ولا أحد يستشيرها، أليس
الموضوع متعلق بها وبمن ستعيش معه بقية حياتها؟
كل هذا كان يسبب لها حالة نفسية مزرية .تارة
تغوص في تفكير عميق ، وتارة تستسلم لدموع
مدفونة، قلما سالت على وجنتيها الذابلتين.

بحر من الهموم امتلك قلبها الذي لم يعد يستطيع
التحمل أكثر ، تحس وكأنها ستنفجر يوما كقنبولة
موقوتة في زمن معين لتعلن سخطها وثورتها ضد
تلك التقاليد الملعونة ، التي قيدت روحها
ولسانها وحتى مشاعرها.

صراخ كمين بداخلها يريد ان يقول لا ، ثم لا ولاكن
تعود لترتخي وتستسلم كبركان ساكن لا يرى منه
سوى دخان طفيف متلاش.

يوم عرسها لم يكن كباقي الايام ، حين يمتزج الفرح
بالأسى يمنحنا نوعا من الإحساس الغامض الذي لا
نستطيع تفسيره لم يكن بوسع الفتاة التعبير عن
سعادتها كباقي الفتيات في يوم كهذا ، وبالرغم من
ذلك كانت تحاول أن تقنع نفسها أنه يجب عليها ان
تفرح وتشعر من حولها بذلك ، إرتدت فستانها
الأبيض الجميل ، ولكن مشكلة أرقتها ، وهي عدم
قدرتها الذهاب إلى الحلاقة كباقي العرائس.

فاضطرت أن تقص شعرها الطويل، ليسهل عليها
عمل تسريحة جميلة حسب موضة ذلك الوقت.
"لا ياابنتي ، لا تقصي شعرك الجميل، فهو يمنحك
مظهرا أبهى وأجمل"

كانت أمها التي لا تريد ان تفقد ابنتها شعرها ، الذي
طالما اعتنت به حتى يطول ويصبح جميلا.

ردت بكل إصرار: " اتركيني أقصه يا أمي
أرجوك، فكل البنات من سني يعملن قصة جميلة ،
في يوم عرسهن ، وأنا ليس لي خيار آخر إلا ان
أعملها بنفسى!"

"لا لن أسمح لك بفعل هذا"

ظلت الفتاة تحاول إقناع أمها، ولكن هذه الأخيرة ظلت مصرّة على رأيها لأنها كانت ترى ان ذلك الشعر هو رمز جمال إبنتها إن فقدته ، فقدت معه معنى آخر للجمال الانثوي الذي تفتخر به كل فتاة في عمر الزهور، خاصة في ذلك العصر الذي دخلت عليه الموضات كسيول جرفت معها عادات وتقاليدها كان يراها الجزائريون خطأ أحمر لا يجوز الدنو منه. حين فقدت الأمل في إقناع أمها استسلمت للبكاء طول اليوم، فرق قلب الأم لحالها ، فقالت لها بصوت يائس:

" إفعلي ما شئت يا بنيتي.!"

ما إن سمعت ذلك من أمها حتى قامت، وأخذت المقص وقصت شعرها بنفسها. كانت الخصلات الطويلة ، تسقط على الأرض كأوراق الشجر، في أول الخريف. أياكون هذا سقوط لأوراق حياتها المقبلة ؟ أيتساوى السقوطان؟ أم هي الطيرة بعينها ويجب التعوذ منها؟

وقفت الأم تنظر إليها، بنظرات الحزن والأسى، لقد تملكها شعور بالتشاؤم، الذي تحاول إخفاءه ببعض الابتسامات المصطنعة، ليمر ذلك اليوم بفرح وسعادة كما يجب أن يكون لأنه عرس إبنتها ونور عينها.

أحيانا نضطر لاصطناع السعادة ، ونوهم من حولنا أننا سعداء فراق الأحبة صعب للغاية ، فمن يستطيع أن يتحمل ألمه، حتما سنعاني في صمت ونذوب في همومنا إلى أن يتغمدنا النسيان هكذا كانت تفكر أمها.

بدأ المدعوون يتوافدون إلى بيت العائلة، الكل شغوف برؤية العروس، حنان كانت خجولة للغاية، فهي لأول مرة تظهر للناس بتلك الزينة، الكل كان منبهرا بجمالها، تقدم عمها فقبلها وسلمها هديتها " شكرا لك عمي ربي يحفظك"

ثم جاء موكب العرس، لترحل إلى عالم آخر غير الذي عهدته إلى حياة زوجية ، ربما سيساعفها الحظ أكثر من السابق ، وتعيش في هدوء واطمئنان أمها التي لم تعتد على فراق ابنتها الحبيبة كانت تخفي دموعها التي تنهمر من حين لآخر على خديها احست أنها ستفقد جوهرة ثمينة لطالما حافظت عليها وهاهي اليوم ستنتزع منها، تذكرت الحمل الكبير الذي حملته عنها طوال تلك السنين فمنذ أن كانت صغيرة وهي تساعد في أعمال البيت وفي تربية إخوتها. حنان سوف تغادر وتترك أمها، تقاسي وحدها هموم الحياة، غالبا ماكانت تؤانسها في محنتها. ولكن تذكرت أن ابنتها ستعيش حياة

أخرى غير التي عاشتها من قبل ، فارتاحت وحدثت نفسها :

" سوف تكون سعيدة إن شاء الله "

فجفت دموعها ومضت لتهيئ إبنتها، فتحت الباب ، وكأنها باب السفر عبر الزمن ، الذي يأخذها إلى المستقبل، أمسكت بآية بيدها ومضت بخطوات ثقيلة، احست الفتاة أن قوة مغناطيسية تجذبها إلى الورا، توجست كثيرا واحترت أكثر، كانت ساقاها ترتعشان إختلطت عليها المشاعر وتقص الفرحة و الحزن لونا واحدا لا فرق بينهما، وفجأة سقطت على الأرض مغشيا عليها ، وأصبحت لا تسمع سوى تمنيات النساء من حولها:

"ماذا بها ؟ توقفوا وضعوا العطر على أنفها لتستنشقه!"

فاستفاقت، وقامت بصعوبة وتابعت سيرها لقد اقتادوها ، كما يقتاد المحكوم عليه الى حتفه، كان هذا احساس غريب بداخلها لا يغادرها ولا يتركها تقتنع بما هي عليه ، تحس وكأنها في ساحة حرب والمهزوم فيها حتما سوف يكون هي.

ما إن وصلوا إلى بيت عائلة زوجها حتى وقعت أعينهم على فرقة موسيقية ، أمام الباب والراقصات يرقصن وتصفقات الحضور كانت تسمع من بعيد، تزينها زغاريد النساء .

لقد كانوا أصدقاء زوجها توفيق ، اللذين يعملون معه ، فلقد كان عازف كمان في إحدى الفرق الموسيقية. السي جلول ، حين رأى ذلك ، استاء كثيرا ولم يعجب بذلك الغناء والرقص ، فالإنزعاج بدا واضحا على وجهه.

دخلت العروس إلى بيت زوجها ، ثم إلى غرفتها، لتبدأ أول خطوة في حياتها الجديدة. ربما كانت حياة أخرى غير التي عاشتها من قبل يقولون ان الزواج يغير كل شيء ، وهذا ما كانت تصبو إليه ، لا تريد صورة طبق الأصل لأبيها ، لأن شخصيته لا تعجبها، ولا تريد أن تتألم كما تألمت أمها.

أول لقاء مع توفيق كان عاديا، لم يتبادلا أطراف الحديث كثيرا . لقد أحس أنها دخلت إلى حياته عنوة ودون استئذان لم تكن المرأة التي كان يتمناها، أرادا شخصا آخر ربما فنانة مثله فمن الصعب أن تتسجم معه من لا تبحر في عالمه الخاص، ولكن كان يخفي شعوره هذا وادرك انه قد فات الأوان الآن وقد

أصبحت معه، في بيت واحد وفي حجرة واحدة فلا يحق له ان يثور ضد هذا الزواج الذي فرض عليه. حنان بدورها أحست ان شيئاً ما يشغله عنها، كان يشبه الجو الهادئ الذي يسبق العاصفة، غموضه يزداد يوماً بعد يوم ولكنها فضلت تجاهل كل ذلك ، لكي تقنع نفسها ، أنها مع زوج يناسبها .في بعض الأحيان نحتاج إلى صنع سيناريو حياتنا بنفسنا ، لكي نديره بمحض إرادتنا ، ورغبتنا إذن فلا بد من الإستمرار، وانتظار ما ستحمله الأيام من تغيرات. ذات صباح ، فتحت عينيها ، فرأت زوجها يحضر حقيبتة وكأنه مسافر ، جلست بسرعة ثم قالت:

" إلى أين انت ذاهب "

فأجابها: " إنني مسافر إلى الصحراء ، عندنا عمل هناك وسوف امكث بعض الأيام "

أردفت حنان: " وتتركني وحدي؟ " قال: "أنت لست وحدك امي وابي معك ، وكذلك أخي واختي "

قالت واليأس قد تملكها: " وهل ستغيب طويلاً؟ " "لا أيام قليلة فقط "

حنان: " حسناً! عد بسرعة "

توفيق: "إلى اللقاء ، أراك بعد ايام "

أغلق الباب وانصرف، وكأنه طيف عابر.

انتاب الفتاة شعور كئيب، ولم تفهم ما يحصل لها ،
لم تمضي سوى ايام قليلة على عرسها وهاهو
زوجها ، يسافر ويتركها تتخبط في بيت لم تعتد عليه
، واناس لم تنسجم معهم بعد ، فحماها لالا عيشة
كانت تستيقظ باكرا تتناول فطورها وتأخذ أدرأجها ،
حاملة قفها إلى السوق لتشتري ما يلزم لتحضير
الغذاء ، وأشياء أخرى تحتاجها العائلة في البيت
،أما عن حماها السي مبارك ، فبدوره يستيقظ باكرا
ويغادر إلى عمله ، فلقد كان يعمل في إحدى دور
الأيتام ، أخت زوجها هند كانت تبلغ الثالثة عشر من
عمرها ، يعني أن حنان لا تكبرها كثيرا ، وهذا ما
جعلها تنسجم معها في بادئ الامر ، حتى إذا مرت
سنوات قليلة حتى اصبحت هند تسبب لها الكثير من
المشاكل والمكائد .

في الصباح ، كانت تسمع ضجيجا في قاعة الجلوس
، في البداية لم تكن تدرك ما كان يحدث ثم اكتشفت
بعد ذلك انه اخ زوجها ربيع الذي يحاول العطس
لأنه كان يعاني من حساسية .

أشغال البيت انهكت كاهلها ، فجسمها الصغير لم
يكن ليتحمل كل ذلك التعب ، فأمثالها من الفتيات من
سناها كن يدرسن ويمرحن ، ويلاطفن الحياة بتبادل
الحكايات، عن الاميرات وفوارس أحلامهن!

لم تكن لترضى بذلك الروتين الذي كاد ان يطبق
على قلبها، أصبحت وحدها تكابد امواج الضياع

اللامتناهي ، زوجها الغائب عنها ، لم يمنحها درع الأمان الذي ستقاوم به كل تلك الشوائب التي تلقى على عاتقها كالجبال.

قالت يوما بغفوية : "إنني تعبت ، وأشتاق للراحة" فتلقت بسرعة الرد من حماتها: "لقد تزوجك إبني لتخدميه وتخدمينا"

فتمتت وهي التي لا تستطيع الجهر بردها: "أنا لست خادمة عندكم" فخطفت لالاعيشة تلك الكلمات ، لتجعلها حجة على المرأة المسكينة وأخذت تصرخ بأعلى صوتها:

"كيف تقولين انك لست خادمة عندنا ، ماهذا الادب وما هذه الوقاحة الا تستحين من امرك؟" فتجيبها " قلت لك انني تعبت ، لماذا لا تساعديني أنت وابنتك في شغل البيت ؟"

فترد عليها حماتها " عليك بالعمل والسكوت وإلا أخبرت توفيق لكي يؤدبك."

فتنسحب حنان دون أن تتفوه بأية كلمة، وتسلم أمرها لله لأنها تعلم يقينا أن زوجها سوف لن ينصفها وسيزيد الطين بلة.

من حين لآخر ، كانت تذهب إلى الشرفة ، لتخطف بعض الوقت للتسلية ونسيان قسوة المترصدين ، فتتظر إلى الشارع المقابل ، الذي صنع لها لوحة فنية تحوي حركة الناس ، ولعب الأطفال ، ثم تعود أدراجها نحو المطبخ لتكمل عملها اليومي.

في يوم لم يكن كباقي الأيام ، لقد استرقت وقتا لتتظر من من الشرفة لعلها تجد ما يسليها ويمسح عنها غبار العناء، فشدها انتباهها شجار بين رجلين من جيرانهم ، وقد تجمع الناس من حولهم يحاولون إيقاف هذا العراك، فبينما هي مشدودة لهذا الحدث حتى لمحت زوجها من الشارع المقابل للبيت ، نظراته إليها ، كانت كوقع السهام ، توجست كثيرا وأصبح الرعب متمكنا منها ، منتظرة دخوله متوقعة ما سيحدث لها ، لقد اعتادت ان ترى اباها يعاقب أمها حين يجدها تنظر من النافذة لقد تسابقت إلى مخيلتها ذكريات مؤلمة لأمها التي كانت تضرب ، من أجل هذا السبب التافه دخلت غرفتها مسرعة حتى لا يرى أحد من العائلة المهزلة التي سوف تحدث. كبرياؤها لا يسمح لها ان ترى وهي تضرب فضلت أن ترتشف تلك المذلة وحدها، بعيدا عن الأنظار.

دخل ووجهه لا يبشر بخير، نظر إلى الشرفة ، ثم اتجه نحو غرفته، وما إن لقيها حتى ألقى كفه على وجهها ليرسم صفة بقيت آثارها طول حياتها الزوجية، إلتزمت الصمت ، وعلامة الصفة الحمراء على وجهها البريئ.

لم تكن لتعترض او تدافع عن نفسها ، فذلك ممنوع على فتاة مثلها اعتادت على اتشاف كأس المذلة والهوان.

قال لها بغضب: "إن وجدتك في الشرفة مرة أخرى سوف يكون آخر يوم لحياتك معي وساردك إلى أهلك!"

تألمت كثيرا لتلك الكلمات لم يكن يهمها أن تبقى معه، ولكن تبادرت إلى ذهنها مقولة قالها أبوها يوم زواجها: "إن أعادوا ابنتي ، فسوف أعيد لهم ابنتهم" قاصدا بذلك أمها، علمت انها إن طلقت من زوجها ، فحتما ستطلق أمها ، ففي كلتا الحالتين سوف تعيش في جحيم ، فما فائدة من العودة إلى بيت أهلها دون ان تجد من التي كانت تخفف عنها آلامها، لقد كانت هذه مساوئ الزواج العائلي ، وكأنها عبارة عن معاهدة يجب على الكل الالتزام بها.

أحيانا تكون التضحية ضرورة موثوقة لكي نحافظ على من نحب ، فالاحتفاظ بأمها كان أهم من انصرام معاناتها ، هي لا تريد أن تكون ذريعة لتعاسة وحزن حبيبته . فاستكانت للواقع المرّ وعادت حياتها دون أن تلتفت إلى الوراء .

حين يتناسى المرء آلامه يتمكن من استتمام مشواره دون أن يتوجع ، فالألم الصامت يحتمل إلى حين وما كان لحنان سوى التحمل من أجل أمها ومن أجلها هي أيضا . فالعيش مع أبيها لم يكن أسهل من العيش مع زوجها ، بهذا التفكير كانت تواسي نفسها وتتطلع إلى غدٍ أفضل .

بعد أشهر أصبحت حاملا ، مما جعلها أكثر غبطة من السابق ، لا تفكر في شيء غير ذلك الحمل الذي أراح عنها كثيرا من الحزن والإمتعاص .

بقي زوجها يسافر من حين لآخر ويتركها أياما عدة غير مكترث لما تقاسيه المسكينة من ضنك ومشاكل مع حماتها ، الكل كان يصبّ غضبه عليها إن أغفلت عملا من أعمال المنزل .

فأضحت تشعر وكأنها خادمة ، وليست زوجة فتحدّث نفسها "الملامون ليسوا هم بل زوجي الذي تركني مضغة تتسابقني أنيابهم!"

فتمضي ، إلى غرفتها والدموع محتبسة في قرارة نفسها .

تمرّ الأيام ولا تترك لها وقتاً للتفكير في حالها،
الحمل أصبح يثقل عليها ، شيئاً فشيئاً ، فضلاً عن
أنّها حديثة السنّ وتجهل الكثير عن أمور الإنجاب
تخفي أنينها، ولا تشتكي أبداً ، بات وجهها شاحبا
يرسم صورة صارخة، لما كانت تتكبد من المشقة
والتعب.

لم تزر الطبيبة بعد ، فحياؤها يمنعها أن تطلب ذلك،
في يوم نادتها حماتها :

" حنان تعالي ساعديني ، في تقطيع اللحم ."

جاءت الفتاة دون تردد وهي تجرّ ساقبيها الثقيلتين
وكانّ أقلّت جبلا فوق ظهرها !

بلغت المطبخ باعتياص ، فأمسكت اللحم وبدأت
حماتها في تقطيعه، وفجأة لم تشعر بما
حولها أصبحت ترى كلّ شيء يتدحرج أمامها حتى
وجه حماتها بدأ يمتحق شيئاً فشيئاً لم تعد ترى فيه
سوى عيان سودوان كأنّهما حفرتين، ثم سقطت على
الأرض مغشيا عليها .

"تعالوا ساعدوني.ماذاحدث لها؟!."

كان صراخ حماتها كرنين إخترق أذنيها،كانت
تشعر أن شيئاً ما حدث لها،ولكن لا تستطيع القيام
ولا الكلام.

هرع حماها إليها وأمسك بذراعها والتقطت حماتها
ذراعها الأخرى فسحبها إلى غرفتها ثم ألقياها على
سريرها، فأخذت حماتها كأساً من الماء فسقتها حتى
فطنت وفتحت عينيها، سائلة باندعاش عما ماذا حدث
لها ؟

قالت لها حماتها " هيا استريحي الآن حتى تتعافي "
ثم انصرفت وتركتها وعادت أدراجها إلى المطبخ
لتكمل عملها.

أصبحت حنان وكأنّها في دوامة لا تقوى على ترك
الفراش ولم يكن بوسعها إلا أن تخلد للراحة حتى
تستعيد عافيتها.

في المساء دخل عليها زوجها ، فسألها:
" ما بك يا حنان ؟ "

فردّت وهي تتلعثم " أشعر بتعب شديد "
" أجل هذا بادِ على وجهك فأنت شاحبة! سأطلب من
أبي وأمّي أن يصطحباك غداً إلى الطبيببة "
في يوم الغدّ استيقظت باكراً، وحضرت نفسها
بمشقة ، سمعت طرقاً بالباب فقالت:

" أنا جاهزة "

ثمّ مشت وراءهما بخطوات متوانية ، لم تستطع
اللاحق بهما لقد بدا لها الشارع كأنّه سراب لا ينتهي.

أخذ حماها وحماتها يبتعدان شيئاً فشيئاً دون أن يلتفتا إليها وفجأة سُمع صراخ أناس ينادون على الرَّجل وامراته .

"توقفوا !لقد سقطت المرأة على الأرض هل هي معكما؟"

فعادا أدراجهما إلى الورااء ليجدان حنان ملقية على الارض ورأسها مسندا على فخذ امرأة كانت تحاول أن تسترها بملاءتها البيضاء فسألتهما :
"أهي ابنتكما؟"

فردّت الحماة "لا إنّها زوجة ابننا"
"كان عليكم اسأجارسيّارة ! " أردفت المرأة .
أجل سنفعل ذلك أجابت الحماة والخجل ظاهر على وجهها .

فأوقفوا سيّارة وواصلوا طريقهم إلى الطيبة .
عند عودتها إلى المنزل أخذت تتذكّر ما قالته الطيبة :

"إنّها ضعيفة جدا, عليها أن ترتاح وتأكّل جيّداً"
ثمّ أعطتها بعض الفيتامينات وأوصتها بالإهتمام بصحتّها جيّداً.

من أين لها أن تتغذى جيّداً وحماها يشتكي من قلة المدخول ؟

لاسيما وأنّ زوجها لا يساهم إلاّ بقسطٍ قليلٍ من
المال في مصروف البيت!

ما زالت تتذكر ذلك اليوم الذي دخل عليها فجلس
وقال: "أريد أن أقول لك شيئاً يا ابنتي، توفيق ابني
ولكنه عديم المسؤولية ولا يبالي بشيء إنه لا
يستطيع أن يبني لك بيتاً زوجياً بمعنى الكلمة فسوف
تعانين معه! هل تفهمين ما اقصده؟"

ثم قام وغادر دون أن يضيف كلمة واحدة .
تلك الكلمات وقعت على قلب الفتاة المسكينة
كالصاعقة ،لم تفهم جيداً ما كان يعنيه بكلامه حداثة
سنّها لم تسمح لها آنذاك أن تعي كلّ كلمة قالها
حماها، بل استقبلت ما قيل لها بالصمت ونظرات
الحيرة.

من أين لها أن ترتاح والكلّ يعاملها كالخادمة دون
أن يباليوا بوضعها الصحي، ولكن تفكيرها في الجنين
الذي في بطنها جعلها تنسى أو بالأحرى تتناسى
متاعب الحياة.

بدأت علامات الحمل تظهر شيئاً فشيئاً، تارة تكون
في أحسن حال فتعمل بكلّ جهدها وتارة أخرى
تتدهور صحّتها فتغدو سجينّة الفراش وحيدة في
غرفتها تقاسي ألم الحمل وتتجرّع ألم الوحدة وتفقد
الحنان والعطف.

زوجها يغيب عن البيت طول اليوم، وفي آخر النهار يلج إليه منها، يتناول عشاءه ويستلقي على فراشه حتى يغصّ في النوم العميق إلى الصباح. غالباً ما كانت تتمنى لو أنّها تتحدث معه قليلاً عن أمور حياتهما ومستقبلهما، في يوم حاولت أن تسرق بعض اللحظات من وقته لتتحدّث معه في أمور تخصهما لاسيما أنّ والديه بدأ يتضايقان من وجودهما معهم حيث أصبحا يطلبان منها مغادرة المنزل.

قالت له ذلك اليوم: "عليك أن تجد لنا منزلاً نعيش فيه أنا وأنت وطفلنا، فوالداك يريدان أن نغادر، حتى يستطيع أخوك الزواج!" ثمّ أردفت: "وأنا أتحمّل غضبهما لوحدي، فأنت غائب عن المنزل طول اليوم!"

فردّ عليها والغضب يلوح في وجهه: "أسكتي لا تصدّعيني بهذا الكلام فمن لم يعجبه العيش معي فالغادر هو المنزل."

فتردّ عليه بصوت حزين ومهزوم: "ولكن هذا ليس منزلنا بل منزلهم!" فبرّد بغضب وعصبية: "آه... أصمتي ولا تعودي لهذا الكلام وإلا سأخرج ولن ترينني حتى الليل!"

فتصمت المرأة دون أي جدال، فتصبح كالمخدرة لا تدرك ما يجب فعله، تشعر وكأن حياتها تنهار شيئاً فشيئاً فالغموض يحتكر مستقبله، تتساءل في قرارة نفسها أهذه الحياة التي كانت تحلم بها؟ أم هذا هو الفارس الذي كانت ترسم له صورة في مخيلتها؟ طبعاً لا، فهي تشعر وكأنها أُلقيت في جبّ عميق تظلّ تتدحرج فيه إلى زمن تجهله ولا تتحسس نهايته .

تستسلم و تعود لحياتها الروتينية و تمر أيامها، تعدّها يوماً بعد يوم، تنتظر مولودها بشغف كبير. ترسم له صورة جميلة في مخيلتها و تتمنى أن تبقى مع تلك الصورة حتى موعد حضوره إلى الدنيا لكي تنسى معه واقعها المر الذي يكاد يخنقها.

توفيق، بدوره لم يسلم من التفكير المستمر في حياته يحس أنه لم يعط زوجته حقها الذي تستحق هو أيضاً كان ضحية زواج عائلي روتيني لم يفكر أحد فيما إذا كان الزوجان يتلائمان، يشعر كأنه في واد و حنان في واد آخر كيف يستطيع إفهامها هذا! فهو يريد حياة مستقلة لا قيود فيها، يصبو إلى الإبحار في عالمه الخاص مع موسيقاه، ويعيش مع ألعانه لا يفكر في شيء آخر، يشعر و كأن أنفاسه تختنق من ضغط المسؤوليات التي تنتظره، فالمولود على وشك الخروج إلى هذه الدنيا، فماذا لو شغله عن

حياته الفنية ؟ ثم يلقي بكل هذه الانشغالات وراء ظهره و يغوص في ألحانه مع آله الموسيقية مدندناً بصوت خافت بعض النوتات لكي يتغاضى عن الواقع الذي ينتظره!!

بعد أيام، وجدت حنان نفسها في المشفى و الطبيبات من حولها، فالولادة كانت صعبة .
- " هيا تشجعي و لا تخافي ! عليك مساعدتنا" صاحت الطبيبة.

- " آآه!! لا أستطيع.. أحس أنني سأموت.."
- " لا لا.. عليك أن تتشجعي و لا تستسلمي، هيا إنه على وشك الولادة!!".
- " يا إلهي ساعدني.... آآه!!....".

بعد برهة سمعت صوت بكاء الطفل فاستبشرت خيراً و فرحت كثيراً..
- " مبارك عليك ! إنها طفلة جميلة..".

ما إن سمعت حنان تلك الكلمات حتى ذهب كل ألم و تعب عانته وقتها، فقالت لها الطبيبة:
" ماذا ستسميها؟!".

- " سعاد!!".
- " إنه اسم جميل ..".
تمت حنان بحنو: " سعاد!.. لقد انتظرتك يا ابنتي!!".

"تفضلي سيدتي.. امسكي ابنتك جيذا و أرضعيها".
حين أمسكتها شعرت و كأن الدنيا فتحت لها ذراعيها
لتحتضنها.. لقد اختارت لها اسم سعاد، و كأنها
تصبو إلى السعادة المرجوة التي افتقدتها منذ زمن
بعيد، و ما إن تلاقت أعينهما معاً حتى أحست أن
رابطاً قوياً يربطها بتلك الرضيعة الصغيرة، قد
أحببتها كثيراً بل و أكثر من روحها، فمن تلك اللحظة
نشأت العلاقة السحرية بينهما.. تلك العلاقة التي لن
يفهمها أحد قط!

دخل توفيق عليها و ما إن رأى الطفلة الصغيرة
حتى قال: " أهأاااء.. إنها بنت!!.. كان بوذي لو أنها
ولد لأسميه فريد.. كاسم الفنان فريد الأطرش، لكن
لا بأس... متى ستخرجين؟! ".
- " اليوم! هذا ما قالتة الطيبة".
- " إذن حضري نفسك سوف أعود لآخذك إلى
المنزل".

ثم ألقى نظرة سريعة على ابنته وتبسم لها فأردف:
" هذه الطفلة جميلة حقاً!". ثم داعب خديها بإصبعه
و قبلها برقة و غادر....

في البيت فرح الكل بتلك المولودة التي اخترقت حياتهم دون استئذان، و خاصة هند شقيقة توفيق، فهي تعشق الاطفال كثيرا و كانت تنتظر الطفلة بشغف كبير، كانت تتسلل إلى الغرفة من حين لآخر حتى تراها و تلاعبها، حبها لها فاق التصورات، حتى أنها في يوم أخذت مالا من والدتها خلسة و اشترت ملابس الأطفال و جاءت إلى حنان مستبشرة! " حنان! حنان! خذي هذه الملابس، ألبسيها لسعاد!!".

"ملابس؟ و من أين حصلت على المال لشرائها؟!".
" لقد أخذته من أمي خلسة!!".

ثم أردفت: لا تخبري أحداً، اتفقنا؟.
لم يعجب حنان ما فعلته هند فقالت مؤنبة: " لم فعلت ذلك؟ إن علمت والدتك ستوبخك!!".

- " أرجوك حنان لا تخبريها!!!".
- " لا عليك، لا تعودي لفعل هذا ثانية، على كل حال أنا أشكرك!".

أخذت حنان الملابس و ألبستها لطفاتها ثم همست لهند: " انظري كم هي جميلة الآن!".
- " نعم، إنها جميلة حقاً!!".

ثم رسمت على خدها قبلة و مضت إلى غرفتها..

كبرت الرضيعة و كبرت معها مصاريقها، و توالى متاعب حنان، و زوجها كان يغيب عن المنزل طول اليوم، و حين يلج إلى المنزل ليلا يتفادى الحديث في أي شيء و يردّ دائما بتثاقل:
" إنني متعب!!!"

كان هذا يؤرق حنان كثيرا و يبعث فيها إحساساً بالضيق...

من جهة تتجشم قهر حماتها و حماها و من جهة أخرى تنقصى روح المسؤولية في زوجها فوضعها كان صعباً جداً و أنينها يكبر يوماً بعد.

يوم مما زاد الطين بلة شجارها المتواصل مع حماتها لا يطرق السلام أبداً، ذلك البيت الذي أصبح كفجوة بركان يتحىن انفجاره من يوم لآخر.

لن تنسى ذلك اليوم أبداً لقد نقش في ذاكرتها إلى الأبد، فقد بدأ الشجار كالعادة، لقد أحست أن حماتها تريد أن تستسلم و تغادر حتى يتبعها زوجها و ترتاح العائلة من ذلك الحمل الثقيل...

انترعت الحماة البنت من يد حنان ثم قالت:
" فلتغادري إلى بيت والديك، و اتركي هذه الطفلة فهي ابنتنا!!!"

امتعضت حنان غيظاً و صاحت: " أعيدي إلي ابنتي.. لا أريد أن أتركها حتى أموت!!!"

- "لا!! لن أعيدها إليك أبدا، قلت غادري من دونها حالا!!!"

أرجأت حنان إليها بحزن ثم همت إلى غرفتها صامتة و أوصدت الباب ولم تتفوه بكلمة واحدة. خيم الصمت في الغرفة ، وانتاب القلق لالاعيشة و هي حاملة الطفلة ترمقها نظرة و إلى باب غرفة حنان بنظرة أخرى، شعرت فجأة أن الوضع ليس على ما يرام ..

و أغلب ظنها أن حنان ستؤذي نفسها فنادتھا من وراء الباب: " افتحي الباب و خذي طفلتك بعيدا هيا!!!"

كررت النداء مرارا ولم تجد رداً فالصمت لا يزال يخيم على الغرفة ولا أثر لصوت حنان!. غمغم لالاعيشة : " لربما فعلت بنفسها شيئا .. يا ويلتاه!!!" فهرعت إلى بيت جارتها تطلب المساعدة فأقبلت الأخيرة و هي حافة مسنة تحبها حنان كثيرا فأخذت تردد: " حنان.. هيا يا ابنتي افتحي الباب!!!"

لما رأت عدم استجابة أمسكت بيد الطفلة و أخذت تطرق الباب و تقول مصغرة صوتها و كأن الطفلة

من تتحدث:" افتحي لي يا ماما.. هذه أنا سعاد!
طفلتك الصغيرة!!".

جحظت حنان فقامت وفتحت الباب بسرعة ثم سلمت
على الجارة و استلمت طفلتها بلهفة و أفعمتها تقبيلاً
و الدموع تتراقص على خدها فهمست الحاجة:"
هوني عليك يا ابنتي! الله يفرج عليك!! سأذهب
الآن".

- " إلى اللقاء يا خالة.. أشكرك كثيراً".

ما إن رأت ذلك حماتها غادرت المكان دون أن
تنبس ببنت شفة و تيقنت تماماً أنه لا جدوى من
إجبار حنان على مغادرة البيت، ولم يكن لها سوى
التفكير في وسائل أخرى حتى تكسب تلك المعركة..
الشهور الموالية كانت أشدّ إلتهاباً مما كانت عليه من
قبل.. المشاكل ازدادت، وأصبح هناك فرد جديد في
العائلة ، لقد أنجبت حنان مجدداً و هذه المرة رزقت
بولد جميل سمته وسيم، و قد أصبح لسعاد أخ صغير
أحبته كثيراً،و بقدر ما كانت حنان سعيدة بهذا
الصبي بقدر ما هابت المستقبل الآتي.. فكلما أنجبت
ثقل الحمل عليها و صعب الخلاص من تلك الحياة
التي باتت عنواناً لضياعها..

زوجها كان حاضراً بجسده غائباً بروحه، حياتهما
تحامل عليها الملل و الروتين.. كانت تشغل نفسها
بتربية طفلها و كذا الأشغال المنزلية، ألمها كان

مدفونا راكدا كبركان خامد ينتظر الإشارة لينفجر
يوما ما.

لقد كانت صدمتها عظيمة حين اكتشفت أنه يمارس
القمار فقد كان يمضي وقته كله في ملء تلك
الاستثمارات، ويراهن على الأحصنة من التي
ستفوز ويقبض هو الجائزة. كان يردد دائما مقولة
كرهتها كثيرا: "سوف أربح وأكسب مالا ونشتري به
منزلا كبيرا"

فتقول له: "كيف تعلق آمالك على وهم ربما لن
يتحقق.... أتراهن على حياتك وحياة أبنائك؟"
فيرد عليها واثقا من نفسه: "كم أنت متشائمة إنك
تنظرين إلى الحياة بنظرات سوداء".

وتمضي الأيام والأيام والمشاكل تزداد بينها وبين
حماتها، ذاتها الضعيفة أضحت غير قادرة على تكبد
المزيد من المتاعب، نفسياتها دمرت ولم يبق منها
إلا القليل من الطموح ليستتم مشوارها الغامض.
يقال إن الضغط يولد الانفجار فما كان لتلك
الضغوطات إلا أن ولدت ثورة نفسية غيرت مجرى
حياتها كلها.

لم يكن بوسعها تحمل المزيد من المعاناة لم تتحمل
أن ترى زوجها يبني لنفسه قصرا من الخيال
ويعيش مع سمفونيته التشايكوفسكية دون أن يستدل
معانيها، كان يجب عليها أن تطلق لنفسها السهم

الأول الذي سيخلصها أو تشعل أول شرارة لإقلاع صاروخ يقلها الى بداية اخرى، فحياتها أضحت مسرحا للألعاب النارية تفرقع هنا وهناك.

المرأة أحست أنها في خطر حقيقي، لم تدرك ساعتها أي طريق تسلك فكل الطرق مليئة بالاشواك، عندما كبرت قليلا أصبحت تفهم الحياة أكثر مما سبق أيقنت مؤخرا أنها أخطأت في العنوان وأنها لم تختار الزوج المناسب لها.

ولكن ماذا بوسعها أن تفعل؟ كلما اشتكت لأُمها اوجلتها من الطلاق ونصحتها بالإنجاب أكثر، فحسب رأيها أن الأطفال سيغيرون الزوج، تلك كانت عقلية ذلك الزمن الذي يُحمل المرأة خطأ اتخاذ القرار فكأن التضحية سبلت لها فقط دون الرجل، كاد رأسها أن ينفجر من التفكير والعجز تملكها، تعيش في دوامة حقيقية لم تستفق منها حتى وجدت نفسها تحضر حقيبتها وتلبس طفلها لباس الخروج ثم أيقظت زوجها وقالت له:

" انهض ابحت لنا عن سيارة تأخذنا إلى بيت أهلي".

حملق فيها باستغراب ثم سألها: " لماذا تريدان الذهاب الى أهلك؟"

استدركت كلامها ثم قالت: " أشعر اني سأختنق وأريد أن أغير المكان حتى ارتاح قليلا ثم أعود لم أعد أحتمل تلك المشاكل التي لا تنتهي".

قام توفيق تناول فطوره ثم خرج ليستقل سيارة أجرة وكأنه هو أيضا احتاج تلك الفترة للاسترخاء ونسيان الواقع الذي تحتم عليه ، هو نفسه لم يكن يريد الزواج وتحمل المسؤولية أراد حياة الوحدة والتفرغ لعالمه الذي صنعه لنفسه.

واجهت النافذة حاملة حقيبتها بيد أخرى، تنتظره وكانت سعاد منتصبة أمامها تحقق في أمها ولم تستنبط ماذا كان يحدث إلا أن ذلك المشهد رسخ في ذاكرتها حتى كبرت وتفتنت لكل شيء.

أقبلت سيارة الأجرة وركبت هي وزوجها وطفليها لتغادر، فكانت أول خطوة لتغير تلك الحياة وذلك الأسلوب المعيشي الذي لم تعد حنان تطيقه.

غادرت دون وداع ذهبت إلى بيت أهلها وأوصدت باب ذلك الماضي الذي اجتلب لها المشاكل والتعب النفسي، الكل يظن أنها سوف تعود وهي مسألة ترويح عن النفس فقط ، هي وحدها من تعلم ماذا عليها فعله ، كانت تبصر أن في تلك الخطوة دفع لحياة أفضل ومستقبل منير.

ولجت البيت ونبرات وجهها ليست كالمعتاد نظراتها تلهم بشيء ما داخلها لقد أبصرت أمها ذلك فأعلنت باستغراب: " مابك يا حنان تبدين حزينة ؟"

ردت بهدوء: " أنا بخير يا أمي بل أحسن من السابق"

لم تكن الأم لتخفي دهشتها الممزوجة بشيء من الخوف، وأردفت: "ارتاحي يا ابنتي ثم قصي علي ما جرى لك إني أعلم أن هناك مشكلة ما فأنتي ابنتي وأنا أعرفك جيدا".

ربما كان إحساس الأم الذي لا يضاهيه أي إحساس آخر.

عاد سي جلول من عمله فوجد ابنته في البيت لم يعر ذلك القدوم المفاجئ أي اهتمام بل أخذ يلاعب حفيديه ثم طلب كعادته الطعام لأنه كان جائعا ومنهكا.

في اليوم التالي سألتها أمها: "ألا تخبريني عن الذي دفعك للقدوم إلى هنا فجأة؟"

نظرت حنان إلى أمها بحزن شديد ثم قالت:
"لقد تعبت يا أمي، لم أعد أطيق العيش في ذلك المنزل، الكل يترصد لي والكل يحبك لي المكائد، يريدون مني أن أغادر و زوجي لا يبالي بشيء، طول النهار مشغول خارج البيت وفي الليل يستسلم للنوم، لم أجد قلباحنونا ولا أذنا صاغية. وجدت نفسي حائرة وضائعة فقررت أن أترك كل شيء وأغادر حتى أجد حلا لمعاناتي"

لم تستطع أم حنان أن توارى قلقها وحزنها فانهارت بالبكاء وقالت: "ياحظك التعيس يا ابنتي... ظننت أنك سوف تسعدين عند تلك العائلة".

استأنفت بكأؤها ثم أردفت: "والآن ماذا إن تطلعت فسوف يغضب أبوك ويطلقني إنتقاما منهم وربما رفض أن تحتفظي بطفليك."

ما إن سمعت حنان هذا الكلام حتى أمسكت بطفليها واحتضنتهما ثم قالت والدموع منهمرة على وجنتيها: "لا لا يا أمي أرجوكم لا أريد أن يفارقني أطفالي فهما روحي ونور عيني، ولا أستطيع العيش دونهما".

ثم أجهشت بالبكاء وطفلتها الصغيرة تحملق فيها باستغراب ماسكة بكثف امها وكأنها تريد الالتصاق بها حتى لا ينتزعوها منها، لقد كانت نظرات الطفلة الصغيرة تحمل معاني كثيرة وكأنها تحكي حكاية وداع محتمل بينها وبين أمها اليايسة .

انتبهت حنان إلى توجس إبنتها فأخذت تطمئننها :
"لا تخافي يا طفلي لن أترككما حتى أهلك".

مرت تلك الأيام بكل ما تحمله من هموم وآلام كانت المرأة ضائعة وسط مشاعرها لم تحسم أمرها بعد، كما أنها لم تدري ما يجب عليها فعله. ولكن إيمانها بالله ملأ قلبها بالطمأنينة وعزمت على انتظار ما يحمله القدر لها في الأيام القادمة. تحدثت مع أمها كثيرا ولكن لم توصلها إلى برا الأمان، بل زادت من توجسها وآلامها.

في يوم كانت جالسة تفكر في مصيرها حتى سمعت طرقا بالباب، لقد كان زوجها ما إن رآته حتى انتابها شعور بالاستغراب، لم يترك لها مجالا لطرح الأسئلة وقال: "سوف اطلب من والدك أن يعيرنا غرفة لنعيش فيها ريثما استأجر بيتا".

لم تدري حنان إن كان عليها أن تسعد بهذا الخبر أم لا فذلك الكلام يعني أنها ستستمر في ذلك المشوار الغامض وذلك الضياع الأبدي.

أحيانا يكون التشبث بخيط الأمل ضروري لتستمر حياتنا إن لم يكن هناك حل آخر، فخيوط الأمل تتعدد إن أردنا ذلك فعلا فلا مجال للاستسلام لليأس. هكذا فكرت وهكذا قررت، قالت في قراره نفسها: "ليس لدي خيار آخر لا أريد أن أخسر طفلي ولابد من التضحية من أجلهما حتى آخر رمق في حياتي".

ربما كانت تأمل في غد أفضل يحمل لها السعادة المرجوة أو ربما أرادت أن تنتقل طموحاتها إلى أبنائها فيما بعد، وكأنها أحست أن قطار الحياة تولى عنها وأن أحلامها انتصرت ولم تعد كما كانت من قبل بنفس الهمة وب نفس الأمل. مجيء زوجها إليها جعلها تعيد ترتيب أوراقها فالظروف آنذاك لم تبح لها اتخاذ القرار بالانفصال، أحست أن شيئا ما كان يقودها للأمام خطواتها الثقيلة لم تتوقف.

ربما كان القدر الذي لا يترك لنا اختيار الطريق
فيتحتم علينا متابعة السير.

"مرحبا بك يا توفيق" قال السي جلول:

"أراك حائرا في أمرك"

تردد توفيق قليلا ثم قال : " نعم أريد أن أطلب منك
شيئا"

أقرب السي جلول حاجبيه مستغربا: " وما هو؟"
فاضاف توفيق أريد أن تسكنني عندك بعض الوقت
حتى أجد منزلا للكراء، فكرّ السي جلول قليلا ثم
قال: " لدي غرفة صغيرة إن أردت اسكن فيها ريثما
تجد حلا"

"شكرا لك... سأعمل كل ما بوسعي حتى أجد
منزلا في أقرب وقت."

حين سمعت ذلك حنان قالت في قرارة نفسها: "أظن
أننا سنمكث هنا طويلا."

هي تدرك جيدا أن زوجها ليس بالرجل الذي يقضي
أموره باستعجال.

لقد ازداد خوفها من أن يتساهل في أمر السكن
ويتركها كما كانت من قبل عند أهله.

تمرّ الأيام كما تمرّ نسمات الهواء ، و شاء القدر أن تلد حنان طفلة أخرى وما زالت تقطن في بيت أهلها ، ضاقت بها الدنيا ودعت الله كثيرا ليفرج عنها ، ويجد زوجها مسكنا ، فالغرفة لم تعد تسع عائلتهما الصغيرة .

نفس الشعور الذي راودها من قبل أخذ يعاودها،إنه الضياع الذي لا ينتهي أخذ صبرها ينفذ وخاصة عندما ترى زوجها لا يعير لهذه المشكلة اهتمام ، تحدثت معه عدّة مرات عسى أن تدفعه للبحث عن منزل أوسع ولكن دون جدوى فجوابه كان في كلّ مرة :

"اصبري ،ولا تزعجيني بهذا الحديث."

فتحجرت الكلمات في فمها وأصبح كلامها دموعا تسكبها في اليوم عدّة مرات ، ولم يخفي توفيق تأثيره بحالها هو الذي كان يكره رؤية الدموع ، ومنظر الحزن ، فدفعه ذلك إلى أخذ الأمور بجدية ، ولم يتماثل في البحث عن شقة للكراء،استعان بأصدقائه فدلّوه على بيت في مدينة جميلة ، لم يتوانى في حمل البشري لزوجته علّه يركن إلى الراحة والخلاص من تأنيبها إياه .

فرحت كثيرا حنان بهذا الخبر وأخذت في الحال جمع أغراضها للإستعداد للرحيل .

يومها لم تستطع أمّها إخفاء دموعها لقد امتزج
حزنها وفرحتها وهي تودّع ابنتها ،لقد فرحت
لحصولها أخيرا على بيت يأويها هي وعائلتها
الصغيرة في الوقت نفسه حزنت لفراقها وبعدها
عنها .

أخذت حنان أغراضها وحضرت أطفالها، كما
أحضر زوجها سيارة لنقلهم ،نظر إليها أبوها مداريا
تأثره بفراقها راسما ابتسامة على وجهه وقائلا:

"اهتمي بنفسك وبأبنائك يابنيّتي ."

فترتمي في أحضانه والدموع على خديها قائلة:

"إلى اللقاء يا أبي سأزورك من حين لآخر ،اهتم
بنفسك"تقبل أمّها وتأخذ أدراجها نحو السيارة .

تمرّ الأيام ،والسنين في ذلك البيت الجديد،وأصبح
لدى حنان سبعة أطفال،وقد عانت معهم حتى
كبرواوأما زوجها فقد كان حاضرا معها بجسده
غائبا عنها بروحه ،في النهار منشغل في عمله وفي
المساء يعود إلى البيت منهاكا ،يتجه إلى غرفته
ويستلقي قليلا ثم يقصد أوراقه المتدلّية هنا وهناك
على طاولة صغيرة تمتزج النوتات الموسيقية
بأوراق اليناصيب التي لم يجني منها سوى الخسارة
تلوى الخسارة وفي كلّ مرة يطمع أن يحالفه الحظ
ويربح .

تتظر إليه حنان والوجوم والأسى باديان على وجهها ،
فيتهرب من نظراتها ويتنأى عنها ظانا منه أنه
أصبح في مأمن من عتابها الذي لم يعد يطيقه .
فينتظر أول شرارة ليفرغ ما في جعبته من غضب
ونقمة على هذه الزوجة المعارضة لأسلوبه الخاطئ
في الحياة .

ما إن تتفوه المسكينة بكلمة تحمل في طياتها عتابا
فيطلق عنانا لتعنيفه وشتمه لها وأبناؤه واقفين
كشهود لتلك المعارك اللامنتهية حائرين في أمرهم
أيدافعون على أمهم وهم على يقين أنها على حق
أم يتركونها لتنتهشها مخالب أبيهم الغاضبة .

وتمرّ الأيام والسنون وحنان مازالت في ذلك المنزل
تتكبد عناء المسؤولية، تنهظ في الصباح الباكر
وتحمل أدرجها إلى السوق ببعض دنائير لا
تكفي لشراء ما يحتاجه أبناؤها من مأكّل أو مشرب
،ثمّ تعود إلى المنزل منهكة وتتجه إلى المطبخ
لتحضر طعاما لأسرتها .

كبرت بناتها وأصبحنّ في سنّ الزواج ،فتجلس
تفكر كيف تعمل من أين لها أن تأتي بالمال
لتزويجهن ؟ فتسافر بذاكرتها إلى ما قبل زواجها ،
فيأخذها الحنين إلى بيت أهلها فتلك الأيام بما حوت
من آلام وأحزان إلاّ أنّها تركت في قلبها حنيناً
غريباً، وكأنّها الآن تشعر باليأس وخيبة الأمل تلقّيها

في هوة بعيدة ،كلّما أرادت الوقوف على قدميها عاودها الإنهيار ، وكأنّه سراب لا ينتهي..
لم يؤلمها أنّها عانت الجوع والحرمان ولكن ما ألمها هو معاناة أبنائها معها.

في يوم أرادت أن تثور ضد هذا الأسلوب السيئ لحياتهما فقالت : "إلى متى تبقى هكذا غير مبال بحالنا ؟تلقني بمالك في هاوية القمار وتتركنا نعاني المرّ دون ذنب ؟"

فأقطب عينيّه ناحيتها والشرّ باد على وجهه ثمّ قال "اصمتي ،لقد كرّهت كلامك "

فردّت بحزن : "إن كرّهت كلامي ،فلماذا تزوجتني ؟"
فأخذ يصرخ في وجهها بكلام قبيح ثمّ انصرف وكأنّ شيئاً لم يحدث ،ولكن كلّ ما حدث بقي منقوشاً في قلب حنان الجريح.

في يوم قالت له في عصبية عفوية :
"أتحسبني قطعة أثاث أو مزهرية لا دور لها سوى تزيين البيت !كلّا..لم أخلق لأكون هكذا ،الحياة ليست لعبة شطرج أو ميسر نغامر بها،الحياة أغلى من ذلك ،يا للخسارة ضيّعت شبابي كلّ مع من لا يقدر معنى الحياة ولا معنى السعادة الحقيقية ولا معنى الحب ! أبنائك يحتجونك بروحك وجسدك أنت بعيد عنهم كثيراً،يرونك صورة فقط بلا روح!!!إلى متى تضل هكذا غير مبال إلى متى ..إلى متى!!!؟"

نظر إليها نظرة طويلة تحمل في طياتها عبارات استغراب ،وكأنها كائن غريب أمامه ثم جلس وانغمس في أوراق اليناصيب محاولاً أن ينسى ما وقع على مسامعه من عبارات اللوم والعتاب وكأنه يرسل رسالة إلى زوجته أن المخرج من ظروفهم يكمن في تلك الأوراق الملعونة !!!!

أما حنان لم يكن بوسعها سوى التضرع إلى الله حتى يجعل لها مخرجاً يقودها إلى اتخاذ القرار الصائب الذي سيحسم ترددها ويضع حداً لمعاناتها كانت تبحث في داخله عن رجل غير الذي تراه أمامها، رجل حقيقي تجده في وقت الصعاب يحميها كما تحمي الأسوار القلاع ،رجل رحيم بزوجته، عطوف ومعطاء، لا يتردد في إسعادها !! إنها تشعر بشيء يتمزق بداخلها، أ تكون آخر ورقة تمنحها إياه ؟

ولكن كانت تستأنس بأبنائها وتعلق أملها بهم حيث كانت تحثهم دائماً على العمل و الاجتهاد والتحلي بالأخلاق الحميدة لكي يعيشوا في سعادة وراحة البال .

أستمرت حياتها هكذا ، إلى أن جاء يوم أصبحت
لاتطيق هذا الزوج وكأنّ آخر خيط ودّ كان بينهما قد
انقطع ما جعلها تفكّر في حل يريحه ويريحها، أرادت
حريتها كما أرادت له حريته في اختيار طريق آخر
بعيدا عنها .

عندما تلتقي الأرواح مع من لا تتناسب معها تصبح
الحياة مستحيلة والأفضل أن يراجع كلّ طرف نفسه
ويتخذ الفراق ملجأ له ليتسنى لكلّ واحد منهما إعادة
النظر في حياته.

بعد تفكير طويل ،رأت حنان أن تضع حدا لضياعها
وأن تغادر حياة زوجها بهدوء وتتركه لما هو عليه
لعلّه يلتقي بامرأة أخرى تناسبه .
صلّت صلاة الإستخارة ودعت الله أن يوجّهها إلى
الطريق الصحيح .

ما فائدة الارتباط برجل يتشبّث بخيوط هشّة خيالية
تأخذه إلى هاوية الضياع ؟ في لحظة استجمعت
شجاعتها وأصرّت على اتخاذ قرار الفراق الذي تجد
فيه الشفاء،وكانت الوصفة في هذه المرّة ليست
للطبيب وإنما للقدر!!!

كانت الخطوة الأولى الإتجاه إلى احدى المحاميات
وطلب الخلع من زوجها ،لم يتقبل توفيق فكرة
الطلاق وقد ثار جنونه ،أرادها أن تستمر في تلك
الحياة الضائعة ،ولكنّها حسمت أمرها وسطرت

طريقها ،الآن وقد أوصلت أبناءها إلى برّ الأمان وكل سلك طريقه ولم يبق معها سوى ابنها المريض المقعد ،قررت أن تأخذه معها وتغادر ..

علم توفيق بقرارها، واستلم وثيقة الخلع من المحكمة، أحس في ذلك اليوم أنّ طوفانا جارفا سحب معه كلّ ماتبقى من أحلامه الزائفة، لقد كانت آخر ورقة لحياتهما ،لم تكن تتمنى أن تراه في تلك الحالة ولكن هو من مهدّ طريقا للنهاية ،لقد منحت له فرصا عديدة فضيّعها بعناده وجفائه .

يتهمها ويقول عنها أنّها مذنبّة ،وهي التي عملت فوق طاقتها، تكفلت بابنها المريض وحدها ،وحملت على عاتقها مسؤولية تزويج بناتها الواحدة تلو الأخرى، أكان عليها الاستمرار في تلك المعاناة دون أن تشتكي لكي يهنئ هو بالراحة ؟

لقد وضعت حدا لتلك المسرحية الهزلية التي كان عنوانها زواجها!

حين تذبل عيناها، تعلم أنّ وراءهما بكاء خفي ،طال أمده، لقد بكت بلا دموع منذ أن كانت طفلة صغيرة .

أحيانا لا يكون البكاء بالعبرات التي نراها ولكن بالألم الذي نعيشه يوما بعد يوم دون التحدث عنه أو الإشارة إليه!!!

حضرت حقائبها واستعدت للرحيل ،ثم غادرت تاركة وراءها آثار معاناتها ،مشيت بخطوات ثقيلة، انتابها ألم عميق لأنها لم ترد هذه النهاية ولكنّ القدر كان هكذا،فتحت الباب وفتحت معها أول خطوة للأمام وألقت وراءها ذلك الماضي المتعفن ،أراد توفيق أن يمنعها ولكنه استسلم لقدره فهو أيقن أنه لم يحافظ على الجوهرة التي كانت بين يديه .. كانت تلك الذكريات كمسلسل حقيقي انتهت حلقاته،بنهاية يمكن ان تكون سعيدة بالنسبة لحنان بعدما تخلصت من تلك المعاناة، فالسعادة أحيانا لا تكون كما اعتدناها بل تحمل في طياتها لمسة من الحزن الدفين الذي لا يُعبر عنه بالبسمة بقدر ما يُعبر عنه بعيون تبكي بلا دموع.

أغلقت النافذة وأغلقت معها ذكرياتها ومضت إلى اكمال ما تبقى من مشوارها،واسدل الستاردون كتابة عبارة النهاية، فالأيام مازالت كفيلة أن تدّخر لها شيئا ما من الأمل أو السعادة المفقودة.....

النهاية